
روايات مصرية للجيب
د. نبيل فاروق
- رجل المستحيل -
المصيدة
149
Looloo
www.helmelarab.net

رجل المستحيل

(أدهم صبرى) .. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١) .. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه، هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص .. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعددة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات .. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة تلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١- الأعماق..

خيُم ستار كثيف من الصمت المتوتر، على المقر السرى الخفى، لمنظمة (X) الرهيبة، للجاسوسية الخاصة، فى أعماق مكان مجهول من العالم، على الرغم من النشاط المكثّف الجم، الذى ملأ كل أرجائه، وبالذات قسم المتابعة الإليكترونية والاتصالات، الذى انشغل كل أفراده تقريبًا، فى محاولة كشف عملية اختراق قوية، لشبكة الاتصالات الخاصة المؤمّنة ..

ومن حجرته الخاصة، التى لا يعلم مخلوق واحد موقعها بالضبط، راح مستر (X)، الزعيم السرى للمنظمة يراقب ويتابع ما يحدث، على مجموعة من شاشات البلازما الخاصة، التى تراصت على مساحة جدار كامل أمامه، وهو يجلس على مقعده الوثير، عاقدًا كفيه أمامه، ومستندًا بذقنه إليهما، وذهنه يعيد دراسة الأمور، ويسترجع ذكريات ما حدث، خلال الأيام القليلة الماضية ..

كان يدرك جيدًا أنه يواجه أعتى وأخطر تحد، فى تاريخ منظمته القوية ..

بل وفى تاريخ العالم كله ..

وعندما راجع ذهنه تلك الأحداث الجسام ، التى وقعت خلال ساعات محدودة ، وأيام معدودة ، أدهشه أن الأمور تجرى بهذه السرعة الرهيبة ..

والمتعددة ..

وعلى الرغم من كل ما تذكَّره ، كان فى الواقع يجهل الكثير مما حدث ..

والكثير جدًا ..

فالأمر قد بدأ مع ذلك المأزق ، الذى وقع فيه الأمريكيون ، عندما فوجئوا بأن زعيمة غامضة مجهولة ، قد نجحت سرًّا ، فى السيطرة على أحد الأقمار الصناعية ، الخاصة بمشروع حرب النجوم ، الذى لم يتم استكماله لأسباب اقتصادية وسياسية ، وأنها أصبحت تمتلك أوَّل وأقوى مدفع ليزر فضائى ، فى العالم كله ..

وكإثبات لقوتها ، قامت بتدمير بعض الأهداف المهمة .. والخطيرة جدًا ..

ثم بدأت تملى شروطها ..

وفى صفقة بلا نظير ، طلبت مائة مليار دولار من الماس النقى ، مع شرط مستفز للغاية ..

أن يقوم بعملية التسليم رجل بعينه ..

رجل المستحيل ..

وبوسيلة فريدة ، وعلى متن أحدث مقاتلة أمريكية ، تنطلق (أدهم) عبر المحيط الأطلنطى ، فى طريقه إلى (واشنطن) ..

ولكن الزعيمة الغامضة لم تكن ترغب حقًّا ، فى وصوله إلى هناك ..

بأى ثمن ..

لذا ، فقد تم إسقاط مقاتلة (أدهم) ، والاستيلاء عليها ..

وعلى (أدهم) أيضًا ..

وفى نفس الوقت ، الذى بدأت فيه الزعيمة الغامضة تملى شروطها ، وتحصل من الإدارة الأمريكية على كل ما تريد ، كان (أدهم) يبحث عن وسيلة للفرار من الزنزانة الإليكترونية ، التى سجنته فيها ، داخل غوَّاصتها الخفية الحديثة ، فى أعماق المحيط الأطلنطى .. وكوسيلة للتصدِّى للزعيمة ، قرَّر مستر (X) التعاون مع الإدارة الأمريكية ، وتبادل المعلومات معها ، على الرغم مما فى هذا من تناقض عجيب وغير منطقى ..

ولأننا نتحدث عن تجاوزات غير منطقية للأمور ، فقد وافقت الإدارة الأمريكية على هذا التبادل المعلوماتى ..

بل ، وعلى توقيع عقد رسمى بهذا الاتفاق أيضًا ، مع منظمة جاسوسية إجرامية ..

منظمة مستر (X) ..

ولكن الزعيمة الغامضة فاجأت الجميع بمطلب جديد ، لايقل خطورة ، عن مطلبها السابق ..

مائة مليار دولار أخرى ..

من الذهب هذه المرة ..

ذهب (فورت نوكس) ..

وبينما راح قادة الإدارة الأمريكية يضربون أخماسًا فى أسداس ؛ للبحث عن وسيلة لمقاومة هذه السيطرة القوية ، كان (أدهم) يقاتل رجال الزعيمة فى شراسة عنيفة ، للفرار من سيطرتها ..

وفى ممرات غواصتها الخفية ، المجهزة بأقوى نظم السيطرة والتحكم الإليكترونية ، دارت معركة رهيبة ، بين رجال الزعيمة ، والرجل ..

رجل المستحيل ..

وكوسيلة لمواجهة الموقف ، وجد (أدهم) نفسه داخل حجرة خاصة للغاية ، من حجرات غوّاصة الزعيمة ..

حجرة معادلة ضغط للغوّاصين ..

وفى نفس اللحظة ، التى كشف فيها هذا ، فتحت الزعيمة الأبواب الخارجية لحجرة الغوص ..

وراحت مياه المحيط تتدفق ..

بمنتهى القوة ..

وكان هذا يعنى أنه لن تمضى دقائق ، حتى يغرق (أدهم) فى تلك المصيدة هناك ..

مصيدة الأعماق(*) ..

كل هذا لم يكن يعلمه مستر (X) بدقة ، إلا أنه كان واثقًا من أن عدوته رهيبة بحق ..

فعلى الرغم من شبكة المعلومات الهائلة ، التى تمتد إلى قارات العالم جميعها ، والعدد الهائل من الرجال ، الذين يعملون لحسابه ، فى مختلف الدول ، ومعظم مستويات القيادة ، كان لأول مرة ، يجهل تمامًا كل شىء ، عن خصم يواجهه ..

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الأجزاء الثلاثة الأولى ، (المأزق) ، (القبضة) ، و (النقطة ب) .. المغامرات أرقام ١٤٦ ، ١٤٧ ، و ١٤٨

إنه لا يعرف بحق من خصمته الرهيبة !

من تلك ، التى نجحت فى تحديد مقره السرى الأول ، ومهاجمته ، وتدميره عن آخره ؟!

من تلك التى كادت تظفر به يومًا ، على الرغم من كل احتياطاته وقوته ؟!

من ؟!

من ؟!

لقد تصور فى البداية أنها خصمة قديمة ، عملت لحسابه يومًا ، أو حتى لحسابها الشخصى ..

أو أنها حتى قريبة لواحدة من الزعيمات القدامى ..

وعندما حاول مراجعة الأسماء فى ذهنه ، أحنقه كثيرًا أن انتبه إلى أن العالم تحكمه النساء ، فى هذا الزمن ..

إمبراطورية الماس ، فى (إسبانيا) و(جنوب إفريقيا) و (بلجيكا) ، تحكمها دونا (ماريانا) ، ابنة جونا (ماريا) ، التى حطمها (أدهم) ، فى مواجهة سابقة شرسة(*) ..

(*) راجع قصة (حلفاء الشر) ، المغامرة رقم ١٢

ومنظمة (المافيا) الرهيبة ، تحكمها دونا (كارولينا) آخر من تبقى من عائلة دون (كيرليونى) ، الأب الروحى الأسطورى للمنظمة ، والذى حطم (أدهم) أبناءه ، واحدًا بعد الآخر أيضًا(*) ..

وحتى (أمريكا) ، تحكمها فعليًا مستشارة الأمن القومى السمراء ، التى تبغض الشرق الأوسط كله ، باستثناء (إسرائيل) ، بسبب فارس عربى ، نبذها يومًا فى احتقار ..

ومن حسن الحظ أن ذلك الفارس ليس (أدهم صبرى) أيضًا ، وإلا لانفجرت عروقه من شدة الغضب ..

ففى كل مرة ، لابد أن يجد أمامه ذلك المصرى ..

رجل المخابرات المصرى ، الذى ينفرد بلقب فريد ، وسط كل رجال المخابرات فى العالم ..

لقب (رجل المستحيل) ..

وفى هذه المرة أيضًا ، يصر (أدهم) على احتلال مساحة واسعة من الأحداث ، على الرغم من غيابه الفعلى عن الساحة ، أو ...

(*) راجع قصة (الضربة القاضية) ، المغامرة رقم ٤٩

بتر حديثه مع نفسه بغتة ، عندما وصل تفكيره إلى هذه النقطة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يراجع فى ذهنه تاريخ (أدهم) ..

وعلاقاته ..

واتصالاته ..

و ...

وتوقف ذهنه مرة أخرى ، وحاجباه يزدادان انعقاداً ، واستدار بمقعده كله إلى جهاز كمبيوتر حديث ، وراح يضرب أزراره فى سرعة وحماس ، مبحراً فى بحر من المعلومات والبيانات ..

وفى كل لحظة كان يدرك أنه يقترب بحق ، مما يبحث عنه ..

ويقترب ..

ويقترب ..

ثم تألقت عيناه بشدة ..

فالآن فقط ، عرف السر ..

عرف من هى تلك الزعيمة ..

الغامضة ..

* * *

« سبع دقائق حتى الآن أيتها الزعيمة .. »

نقل جهاز الاتصال اللاسلكى عبارة الرجل ، إلى الزعيمة الغامضة ، التى نفثت دخان سيجارتها فى قوة وتوتر ، قبل أن تلتقط نفساً عميقاً ، فى محاولة للسيطرة على أعصابها ، واستعادة هدوئها ، وتجيب بتلك اللهجة الصارمة الحازمة ، التى اعتادها منها الجميع :

ـ إنها لا تكفى .

حمل صوت الرجل دهشته ، وهو يقول :

ـ الحجرة امتلأت بمياه المحيط بالفعل أيتها الزعيمة ، منذ ما يزيد قليلاً على الدقائق السبع ، وما من مخلوق حى ، بخلاف الكائنات البحرية ، يمكنه احتمال كتم أنفاسه ، كل هذه المدة ، مهما بلغت قوته وكفاءته .

انعقد حاجباها ، وهى تقول :

ـ هذا الرجل يختلف .

لم يبد قولها منطقياً أو عقلانياً ، بالنسبة للرجل ، أو حتى لباقى الرجال ، الذين يستمعون إلى قناة الاتصال اللاسلكية المحدودة ، إلا أن أحداً لم يرغب فى مناقشتها أو مجادلتها ، ولكن الرجل سألها فى توتر :

- كم سيمضى إذن ، قبل أن تطرد المياه من الحجرة ، وندخل لانتشال جثة ذلك المصرى .

شعرت بضيق شديد ، مع ذكره كلمة (جثة) هذه ، مما دفعها إلى أن تقول ، فى صرامة أكثر :

- لن نفعل هذا .

اتسعت عيون الرجال جميعهم ، فى دهشة مستنكرة ، إلا أنها استدركت فى سرعة وحزم :

- ليس بالأسلوب التقليدى .

سألها الرجل فى اهتمام :

- ماذا سنفعل إذن أيتها الزعيمة ؟!

قالت فى سرعة وصرامة :

- سندخل تلك الحجرة من الخارج ، وليس من الداخل .

فهم الرجل ما تعنيه على الفور ، فغمغم :

- كما تأمرين أيتها الزعيمة .

ثم استطرد فى اهتمام :

- كم من الرجال ؟!

أجابته بنفس السرعة والصرامة :

- خمسة .

قالتها ، وأنهت الاتصال معه ، فى محاولة لإلقاء الأمر كله خلف ظهرها ، وهى تقول فى مقت شديد :

- لقد أفسدت الأمور كعادتك يا (أدهم) .. أفسدتها فى الوقت غير المناسب .

وأشعلت واحدة من سجائرها الحمراء الطويلة ، فى عصبية واضحة ، قبل أن تضيف فى حدة :

- انظر ما الذى اضطررتنى لفعله ! لقد انتزعت منى لحظة ، حلمت بها طويلاً .

ضربت مسند مقعدها بقبضتها ، وخيل إليها أن نيرانًا تستعر فى أعماقها ، وتلتهب فى عروقها ، وتملأ كيانها كله بغضب عنيف ..

غضب ربما لم تشعر بمثله قط ، فى حياتها كلها ..

غضب ثائر ..

هادر ..

رهيب ..

غضب يمتزج بالكثير من المرارة ، والأسى ، والغيظ ..

بل والحزن أيضًا ..

وربما يعجز الكثيرون عن تفسير تلك المشاعر المتناقضة المتشابكة ، فى لحظة كهذه ، مع امرأة كهذه ..

ولكنها كانت وحدها تفهم سر ما يعتمل فى أعماقها ...

تفهم سر التناقض ..

والتعارض ..

والالتهاب ..

ولكنها ، وبكل ما تملك من قوة ، كانت تقاوم كل هذا ..

وتقاوم ..

وتقاوم ..

وكمحاولة إضافية ، للسيطرة على انفعالاتها ، التقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها الخاصة ، ثم ألقتها بكل قوتها عبر الحجرة ، قبل أن تضغط زر جهاز الاتصال اللاسلكى المحدود مرة أخرى ، قائلة فى صرامة :

- متى ينتهى إصلاح شبكة الاتصالات الرئيسية .

أجابها مسئول الاتصالات فى توتر ، عبر جهاز الاتصال :

- إننا نعمل بأقصى سرعتنا ، ونبذل قصارى جهدنا بحق أيتها الزعيمة .

زمجرت فى شراسة ، قائلة :

- ابذلوا المزيد من الجهد إذن .. أنتم تتلقون رواتب هائلة ، لا يحلم بها أى متخصص فى مجالاتكم .

قالتها ، وأنهت الاتصال فى حدة ، والتقطت شهيقًا قويًا من هواء الحجرة ، المعبأ برائحة سجائرها ، قبل أن تفرد جسدها فى مقعدها ، محاولة الاسترخاء ، وهى تغمغم :

- أظننى قد ظفرت بك هذه المرة يا (أدهم) ، على الرغم من أنك قد أجبرتنى على اختيار توقيت ، يخالف ما عزمت عليه منذ البداية .

التقطت شهيقًا آخر ، وذهنها يسترجع كل الأحداث منذ البداية ، قبل أن تسبل جفنيها ، متابعة :

- كنت أتصور أن السيطرة عليك ممكنة ، لو اتخذت من الاحتياطات كل ما يمكن أو يخطر ، أو حتى لا يخطر ، على ذهن بشر ، ولكن من الواضح أن جعبتك لا تنفد أبدًا ، وأنك واسع الحيلة ، على نحو لم يتمتع به خصم لى من قبل قط ..

كان صدرها يعلو ويهبط ، فى تعاقب متصل ، يشف عن أن الانفعال الجارف فى أعماقها لم يخمد أو يهدأ بعد ، فأسبلت جفنيها ، متمتمة :

ـ كلا .. ليس الآن .. ليس بعد أن أشعلت النيران ، وأمسكت فى قبضتك الوسيلة الوحيدة لإخمادها .. ليس بعد أن بلغت هذا الحد من خطتك .. اهدئى ، وتوازنى ، وتماسكى ، فما هى إلا ساعات قليلة ، وتحكمين سيطرتك على العالم كله ، وبعدها لن تصبح لـ (أدهم) أو سواه قيمة تذكر .. هيا .. فلتلق كل هذا خلف الظهور ، و ...

« الرجال مستعدون أيتها الزعيمة .. »

قاطعها فجأة ذلك النداء ، الذى انبعث من جهاز اتصالها المحدود ، فاعتدلت بحركة حادة ، وضغطت زر الاتصال ، قائلة فى صرامة ، تبدو أقرب إلى الغضب :

ـ ألم ينطلقوا بعد ؟!

فوجئت بصوت قائد قواتها يجيب فى عصبية ، عبر جهاز الاتصال المحدود :

ـ لابد أن يتلقوا الأمر بهذا أيتها الزعيمة .. هذا مادربتهم عليه جيدًا .

أجابته فى غلظة ، وهى تشعل سيجارتها :

ـ آه .. لقد استعدت وعيك إذن ! كيف وجدت قبضة (أدهم صبرى) ؟! أهى أشبه بالمطرقة ، أم بالقنبلة ؟!

تجاهل عبارتها تمامًا ، وهو يسألها فى صرامة عصبية :

ـ هل ينطلق الرجال أيتها الزعيمة ؟!

نفثت دخان سيجارتها فى قوة ، قبل أن تسأله :

ـ أتوجد وسيلة للاتصال بهم فى الأعماق ، بعد مغادرتهم الغواصة أجابها فى سرعة :

ـ بالطبع أيتها الزعيمة .. الأجهزة اليدوية ، التى نستخدمها ؛ لها غلاف إضافى ، مقاوم للماء ، وهى مزودة بخاصية الرسائل ، ويمكننا بوساطتها متابعة حركتهم طوال الوقت ، دون الحاجة إلى شبكة الاتصالات الرئيسية .

قالت فى صرامة شرسة :

ـ عظيم .. أريد متابعة الموقف ، لحظة بلحظة .. هل تفهم ؟!

صمت لحظة ، بدا خلالها وكأنه يكظم غيظه ، من معاملتها السخيفة له ، عبر جهاز اتصال ، يمكن لكل من يحمل مثله من رجاله سماعها ، ثم لم يلبث أن قال فى اقتضاب :

ـ أفهم .

ثم أنهى الاتصال تماماً ، واستدار إلى رجال الضفادع البشرية ، الذين يستعدون لمغادرة الغواصة ؛ للتأكد من مصرع (أدهم) ، وقال فى صرامة زائدة ، وكأنما يخفى بها ضعفه أمامها :

- هيا .. انطلقوا .

أدى الرجال الخمسة التحية فى قوة ، ثم حمل كل منهم بندقية أعماق ، مزودة بسهم حاد طويل ، ودلفوا إلى حجرة معادلة ضغط ، مشابهة لتلك التى كان فيها (أدهم) ، وانتظروا تدفق مياه المحيط ، حتى غمرت الحجرة تماماً ، ثم انطلقوا بأسلحتهم إلى هناك ..

إلى الأعماق ..

كانت أزياء الغوص التى يرتدونها ، من طراز حديث للغاية ، معد لمقاومة الضغط الشديد فى الأعماق ، مما ساعدهم على السباحة بخفة ، وهم يدورون حول الغواصة ، متجهين نحو الجانب الآخر ، حيث كان (أدهم) ..

ووفقاً لأوامر قائدهم ، تحركوا جميعاً فى صف واحد ، وأسلحتهم مشهورة أمامهم فى تحفز ، وعيونهم ترصد كل ما حولهم بمنتهى الدقة والحرص ..

وعبر جهاز الاتصال الخاص به ، قال قائد القوات فى صرامة :

- إنه لكم يا رجال .. ربما كان متميزاً ومتفوقاً على اليابسة ، ولكنه لن يكون كذلك فى الأعماق ، فحجرة معادلة الضغط ، التى ستجدونه داخلها ، لم يكن بها زى غوص واحد ، يمكن أن يستخدمه للنجاة ، ولن يمكنه احتمال الضغط الشديد ، إلى هذا العمق ، لو أنه فكر فى المجازفة بالخروج دون زى خاص ؛ فستنفجر أذناه حتماً ، قبل أن يبلغ منتصف المسافة إلى السطح .. كلكم تعلمون هذا ، كخبراء غوص ، وعلى الرغم من معرفتكم هذه ، ستتعامل مع الموقف ، كما لو أنه قد نجا بوسيلة شيطانية ، وما زال على قيد الحياة .. هل يمكنكم استيعاب هذا .

لم يكد ينهى حديثه ، حتى وصلته من أحدهم رسالة قصيرة ، تقول :

- بالتأكيد .

التقط نفساً عميقاً ، وقال :

- عظيم .. اظفروا به .

كان الموقف بالنسبة إليه ، قد انتقل من حماية الزعيمة ، وتنفيذ أوامرها ، إلى نوع من الثأر الشخصى من (أدهم) الذى أفقده وعيه ، وأذل ناصيته أمام الجميع ..

لذا فقد كان حازمًا أكثر من المعتاد ، وصارمًا أكثر مما ينبغي ، وهو يتابع حركة الرجال ، الذين يوافونه برسائل قصيرة متعاقبة ، تحدد مسارهم ، حتى أدرك أنهم قد بلغوا حجرة معادلة الضغط ، التى كان فيها (أدهم) بالفعل ، فتوترت كل ذرة من كيانه ، وقال فى حزم صارم شديد :

- أريد جثته ، أو أى دليل على مصرعه .. هل تفهمون ؟

كان بإمكانهم سماعه فى وضوح ، إلا أن أجهزة الغوص كانت تمنعهم من التحدث إليه ، لذا فقد وصلته من قائد المجموعة الخماسية رسالة قصيرة ، تقول فى اختصار :

- نفهم أيها القائد .

كان الرجال بالفعل قد بلغوا مدخل تلك الحجرة من الخارج ، فاستخدموا مصابيحهم الضوئية ؛ لإنارة المكان جيدًا ، وهم يطلقون إليه بأسلحتهم المشهورة فى تحفز ، و ..

ولم تمض ثوان على دخولهم ، حتى التقط جهاز القائد ، وجهاز الزعيمة أيضًا رسالة قصيرة واضحة ، تقول :

- لقد عثرنا على جثته ..

*

وفى وقت واحد تقريبًا ، خفق قلبا القائد والزعيمة معًا .. وبمنتهى العنف .

* * *

٢- جثة فى البحر ..

ازدرد وزير الدفاع الأمريكى لعابه فى صعوبة شديدة ، محاولاً السيطرة على انفعالاته الجارفة ، وهو يقول للرئيس فى توتر :

- الشحنة اكتملت ، ومستعدة للتسليم .

غمغم الرئيس فى مرارة :

- إنها لم ترسل تعليمات التسليم بعد .

ومطت مستشارة الأمن القومى شفتيها فى مقت ، وهى تلوح بذراعها ، دون معنى واضح ، فتساءل وزير الدفاع فى قلق شديد :

- ألن نحصل على موافقة الكونجرس ؟! إنها مائة مليار دولار ، من ذهب (فورت نوكس) .

قالت مستشارة الأمن القومى فى عصبية :

- لقد طلبنا عقد جلسة عاجلة ، خلال ساعة واحدة .

تساءل الوزير :

- وهل يمكن أن يوافقوا ؟!

أجابه الرئيس فى حدة :

- وهل يملكون الرفض ؟!

أدار الوزير عينيه إليه ، وهو يجيب فى سرعة وحزم :

- نعم .. يملكون .

بدا له وكأن الرئيس قد انكمش فى مقعده ، وهو يقول فى مرارة :

- لن يملكوا هذا ، عندما نشرح لهم الموقف كله .

زفرت مستشارة الأمن القومى فى توتر عصبى ، وهى تقول :

- أخشى أن معظمهم لن يستوعب هذا .

قلب الرئيس كفيه فى يأس ، وهو يقول :

- وماذا يمكننا أن نفعل ؟!

صمتت المستشارة بضع لحظات ، قبل أن تندفع قائلة فى حدة :

- لدى خطة .

بدت الدهشة واضحة ، فى ملامح وصوت الوزير ، وهو يقول مستنكرًا :

- خطة ؟!

أجابته فى صرامة :

- نعم .. خطة يا وزير الدفـاع .. خطة لا تحتاج منك إلى تلك الدهشة المستنكرة ؛ لأنها لن تختلف كثيرًا عن تلك الخطة ، التى وضعناها معًا ، لتبرير غزونا (العراق) !

قال الوزير فى عصبية :

- إيهام العالم بوجود أسلحة دمار شامل فى (العراق) ، يختلف تمامًا عن إخفـاء أمر مائة مليار دولار ، من ذهب (فورت نوكس) .

سألته فى صرامة متحدية :

- فيم ؟!

أجابها بنفس العصبية :

- اختفاء الذهب من (فورت نوكس) أمر داخلى ، يمكن لعشرات الجهات أن تحاسبنا عليـه ، أما غزو (العراق) ، فهو من الشئون الخارجيـة ، التى يمكن أن يعترض عليها

البعض ، ويثور من أجلها البعض الآخر ، وتخرج الدنيا فى مظاهرات لرفضها ، إلا أنه لا توجد قوة عظمى أخرى ، يمكن أن تمنعنا من تنفيذها ، ما دام هذا يحقق مصالحنا ، ومصالح أصدقائنا فى (تل أبيب) .

هزت رأسها فى قوة ، قائلة :

- خطأ .. الأمور الداخلية والخارجية واحدة ، ما دمت تستطيع إقناع العالم بهذا .

تراجع الرئيس فى مقعده ، فى توتر شديد ، وهو يتابع حديثهما ، ووزير دفاعه يصيح فى ثورة :

- وكيف يمكننى إقناع العالم ، باختفاء مائة مليار دولار من ذهب (فورت نوكس) ؟!

صاحت بدورها :

- بالإرهاب .

بدا وكأن قولها قد صدمه ، وهو يتراجع بحركة حادة ، هاتفاً :

- بماذا ؟!

أشارت بيدها فى حدة ، قائلة :

- بالإرهاب يا رجل .. الإرهاب الذى يبدو لى أشبه بالعصا السحرية ، التى تبيح لنا صنع كل شىء ، دون أن يجرؤ مخلوق واحد على اعتراضنا .. الإرهاب الذى ألصقنا به كل ما فعلناه ، خلال الأشهر الماضية ، على الرغم من أننا نخطط لكل هذا منذ سنوات ، ومنذ طلب منا الأصدقاء هناك التدخُّل مباشرة ؛ لتثبيت أقدامهم فى الأرض ، التى احتلوها منذ ما يزيد عن نصف القرن ، بعد أن بلغت المقاومة ضدهم حدًّا ، أصبحوا يخشون منه على بقائهم واستمراريتهم .. الإرهاب الذى ..

قاطعها بإشارة غاضبة من يده :

- أعلم ما هو الإرهاب ، ولكننى مازلت أجهل ، كيف يمكن أن يفيدنا ، فى موقف كهذا ؟!

انعقد حاجباها فى شدة ، وتطلَّعت لحظة إلى الرئيس ، قبل أن تعيد بصرها إلى وزير الدفاع ، مجيبة :

- قل لى أنت : ما أفضل صياغة يمكن أن تستخدمها ، فى بيان صحفى ، يُعلن حدوث هجوم إرهابى غير متوقَّع ، على (فورت نوكس) ؟!

انتفض جسد الرئيس ، وهو يعتدل على مقعده بحركة

حادة ، فى حين بدا وزير الدفاع أشبه بالمصعوق ، وهو يهتف :

- على ماذا ؟! وهل تتوقعين أن يصدق مخلوق واحد مثل هذا البيان ، والكل يعلم مدى التحصينات القوية ، فى (فورت نوكس) ؟!

قالت فى صرامة :

- سيصدقونه ؛ لأن الهجوم سيحدث بالفعل .

صاح الرئيس هذه المرة :

- سيحدث ؟! ماذا تعنين ؟!

بدت شديدة التوتر ، على الرغم من صرامتها ، وهى تشير بيدها ، قائلة :

- أعنى أننى أريد إجراء اتصال عاجل ، مع مستر (X) .

اتسعت عينا الرئيس فى ارتياع ، فى حين ردد الوزير ذاهلاً :

- مستر (X) ؟!

أجابت بصرامة أكثر ، وقسوة بلا حدود :

- نعم .. مستر (X) .. ما دام يرغب فى التحالف معنا ، فعليه أن يقوم بدوره فى اللعبة .. وعلى أكمل وجه ..

وازداد اتساع عينى الرئيس ..

وتضاعف ارتياعه ..

أما وزير الدفاع ، فقد كادت عيناه تجحظان ، من فرط ذهوله ..

فما تقترحه مستشارة الأمن القومى ، كان يدفع الأمور خارج الحدود المعقولة ..

كل الحدود ..

على الإطلاق ..

* * *

« أريد جثته .. »

نطقت الزعيمة العبارة ، فى مزيج من الصرامة والتوتر ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى المحدود ، فانعقد حاجبا قائد قواتها ، فى توتر شديد ، وهو يتساءل :

- ولماذا أيتها الزعيمة ؟! الرجال أكدوا مصرعه بالفعل ، والغواصة هنا مازالت تحوى جثث رفاقهم ، الذين لقوا مصرعهم ، أثناء تبادل إطلاق النار معه ، ورؤيتهم جثته هنا قد ..

قاطعته فى وحشية :

- أريد جثته .. مر الرجال بإحضارها فوراً .. هل تفهم ؟!

قال فى غضب :

- أفهم ، ولكننى أعجز عن استيعاب الموقف ، و ...

صرخت فى ثورة شرسة :

- نفذ الأمر .

صمت لحظة ، بذل خلالها جهداً خارقاً للسيطرة على غضبه وانفعاله ، قبل أن يجيب فى اقتضاب :

- فليكن .

أنهت اتصالها به فى سخط ، وهى تشعل سيجارة أخرى ، قائلة :

- ذلك الحقير يتصور نفسه عبقرياً ، ولكنه يجهل تماماً هوية خصمه وطبيعته .

ونفثت دخان السيجارة بكل قوتها ، قبل أن تضيف فى عمق ، وهى تسيطر على انفعالاتها بإرادة فولاذية :

- مع رجل مثل (أدهم صبرى) ، لايمكنك أن تجزم بمصرعه ، إلا بعد أن ترى جثته بنفسك .

وصمتت لحظة ، ثم استطردت فى صرامة :

- بل ولن تتأكد من حمضه النووى وبصمته الجينية أيضاً .

أغلقت عينيها ، وهى تواصل تدخين سيجارتها فى عمق ، وذهنها يستعيد ذكريات عديدة ..

ذكريات بعيدة ..

وقريبة ..

ذكريات أعادت إلى أعماقها عشرات المشاعر والانفعالات ..

والتناقضات أيضاً ..

ذكريات تسللت إلى كل خلية من خلاياها ، وكل ذرة فى كيانها ، وكل نبضة فى قلبها ، و ...

وفجأة ، انتفض جسدها ، وهى تعتدل فى مجلسها بحركة حادة ..

لا ..

لاينبغى لها أن تسمح لمشاعرها بالسيطرة على مواقفها ..

أبداً ..

مستحيل أن تفسد الأمور ، بعد أن بلغت هذا الحد !! ..

مستحيل !

مستحيل ، وألف مستحيل !

كانت انفعالاتها تعاودها ، على نحو جارف عنيف ، على الرغم من محاولتها السيطرة عليها ، لولا أن تلقى جهاز الاتصال الداخلى الخاص بها رسالة قصيرة ..

رسالة تقول : إن جثة (أدهم) عالقة فى حجرة معادلة الضغط ، وأن انتزاعها من مكانها يحتاج إلى جهد شديد ..

وبكل الغضب والانفعال ، هتفت عبر جهاز الاتصال المحدود :

ـ قلت : أريد جثته بأى ثمن .. هل تفهمون ؟! بأى ثمن .

تضاعف توتر قائد قواتها ، مع شراستها الشديدة هذه ، فغمغم فى سخط محنق :

ـ ماذا أصابها هذه المرة ؟!

ثم ضغط زر الاتصال فى جهازه ، وقال عبره ، فى صرامة حملت الكثير من الانفعال ، الذى ولدته شراستها فى أعماقه :

ـ انتشلوا الجثة بأى ثمن .. استخدموا مشاعلكم ، لو أنها عالقة فى ركن ما .. المهم أن تحضروها إلى الداخل .. هذا أمر لا يقبل المناقشة .

ولم تكد الزعيمة تسمع عبارته هذه ، عبر موجة الاتصالات المحدودة ، حتى ألقت سيجارتها بعيداً فى غضب ، صائحة :

ـ مشاعلهم ؟! هل جننت يا رجل ؟! أنسيت أن حجرة معادلة الضغط تحوى أسطوانات من الـ ..

قبل أن تتم عبارتها ، دوى الانفجار فجأة ..

انفجار مكتوم ، هزّ جسد الغواصة كله ، انطلاقاً من حجرة الغوص ، التى أغلق (أدهم) بابها خلفه فى إحكام ..

وبمنتهى العنف ، ارتجّ الباب المعدنى ، حتى كاد يتخلع من موضعه ، فى نفس اللحظة ، التى صرخت فيها الزعيمة ، بكل غضب وشراسة الدنيا :

ـ أرأيت أيها الغبى ؟!

ودون أن تضيع لحظة واحدة ، بدأت تتعامل مع الموقف ، فى سرعة ومهارة ، وهى تهتف عبر جهاز الاتصال المحدود ، وأصابعها تتحرك على لوحة التحكم الرئيسية :

ـ سيتم إغلاق الممر (م ـ ١٢) فوراً ؛ لتأمين الغواصة .. على الجميع إخلائه دون إضاعة ثانية واحدة .

قالتها ، وضغطت زر إغلاق وعزل الممر على الفور ، ثم

التقطت جهاز الاتصال الداخلى ، وهتفت فى غضب مخاطبة قائد قواتها :

ـ أرسل فريق غوص آخر فورًا ؛ لرصد ما حدث ، وتقدير الخسائر الناجمة عن خطئك .

هتف فى حدة :

ـ خطئى أنا .. ولكن يا سيدتى .

صرخت بكل غضب الدنيا :

ـ لا تناقشنى .. نفذ ما آمرك به فحسب .

وقبل أن تمنحه فرصة للمناقشة ، أدارت موجة جهاز الاتصال الداخلى ، لتقول لمسئولى قسم الاتصالات فى صرامة وحشية :

ـ أما زال أمامكم الكثير ، قبل إصلاح شبكة المراقبة ؟! إننا نخسر تفوقنا ، فى كل لحظة تمضى .

أجابها مسئول القسم مرتجفًا :

ـ إننا فى سبيلنا إلى إعادة تشغيل الشبكة بأكملها خلال دقائق قليلة أيتها الزعيمة ، ولكن لو أنك تريدين استخدام قسم بعينه منها ، فيمكننا أن ..

قاطعته صارخة :

ـ أريد الشبكة كلها .

ارتجف صوت الرجل فى شدة ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد يا سيدتى .. بالتأكيد .

كانت تشتعل غضبًا وتوترًا وثورة ، إلا أنها صمتت بضع لحظات ، حتى تسيطر على كل هذا ، قبل أن تقول فى صرامة :

ـ أريد إجراء اتصال خاص مؤمّن ، عبر شبكة الأقمار الصناعية ، التى تسيطر عليها ، فى أسرع وقت ممكن .

أجابها الرجل ، وكل حرف يرتعد على شفتيه ارتعادًا :

ـ سنبذل قصارى جهدنا أيتها الزعيمة .. سنبذل كل جهد ممكن .

قالت بمنتهى الشراسة :

ـ هذا أفضل ... لكم .

وأنهت الاتصال فى حدة ؛ لتدير الموجة مرة أخرى ، صائحة فى قائد قواتها :

ـ هل بدأ الفريق الثانى مهمته ؟!

أجابها في اقتضاب :

- سيبدأ بعد دقيقة واحدة أيتها الزعيمة .

صاحت به :

- أريد تقريرًا فوريًا .

غمغم الرجل ، في حنق واضح :

- بالتأكيد .

أنهت الاتصالات في حدة ، وحاولت مرة أخرى أن تسترخي في مقعدها ، وأن تستعيد توازنها النفسي والعصبي ، وهي تقول :

- هيا .. مرة أخرى ينبغي أن تتماسكي .. وأن تهدئي ..

وبإرادة مذهلة ، راحت تسيطر على أعصابها رويدًا رويدًا ، إلا أن ذهنها لم يتوقف لحظة واحدة عن طرح السؤال ذاته .

تُرى ماذا حدث لـ (أدهم صبري) هناك ..

في الأعماق ؟!

* * *

هزّ قبطان المدمرة الأمريكية (أيزنهاور)(*) رأسه في أسف وأسى ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ، مراقبًا رجاله ، الذين انهمكوا في انتشال جثث بحارة حاملة الطائرات والمدمرتين ، اللتين سحقتهما الزعيمة بمدفع الليزر الفضائي سحقًا ، وقال في مرارة :

- يدهشني كثيرًا أن القيادة العليا ترفض الإفصاح عن حقيقة ما يحدث ؛ فمن الواضح أننا نواجه سلاحًا جديدًا ، لا قِبل لنا به .

غمغم مهندس المدمرة في توتر :

- كنت أتصوّر أننا نملك أقوى الأسلحة على هذا الكوكب يا سيّدي .

هزّ القبطان رأسه مرة أخرى ، وقال :

- إنه ليس سلاحنا بالتأكيد .

(*) (دوايت دافيد أيزنهاور) : (١٨٩٠ - ١٩٦٩ م) : الرئيس الرابع والثلاثون للولايات المتحدة الأمريكية (١٩٥٣ - ١٩٦٠ م) ، قاد قوات الحلفاء في (إفريقيا) في الحرب العالمية الثانية ، وعُيّن قائدًا لقوات الحلفاء المشتركة ، عام ١٩٤٣ م .

تردد المهندس بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حذر :

- ربما كان سلاحًا تجريبيًا ، أو ...

قاطعه القبطان بمنتهى الصرامة :

- إنه ليس سلاحنا .

أطبق المهندس شفتيه فى توتر ، ولاذ القبطان بالصمت بضع لحظات ، وهو يواصل متابعة عملية انتشال الجثث ، ثم لم يلبث أن تابع ، وكأنما شعر بحتمية التفسير ، أو أنه كان يحتاج بالفعل إلى إفراغ ما بداخله :

- لا يوجد سبب واحد فى الدنيا ، يدفع قيادة عليا إلى تجربة سلاح جديد ، على قطع جيشها نفسه .. لدينا هنا عشرات الوسائل الأخرى ، لتجربة أسلحتنا ، مثل صناعة النماذج المماثلة ، وإجراء عملية تطابق على الكمبيوتر ، أو ...

قاطعه المهندس فى خفوت :

- أو شن حروب لا مبرر لها ، على شعوب أخرى ، لا تملك الأسلحة الكافية لمواجهتنا .

انعقد حاجبا القبطان فى شدة ، وهو يقول :

- قول خطير يا هذا .

هزَّ المهندس رأسه ، وقال :

- إنما أحدث نفسى بصوت مسموع .

قال القبطان فى صرامة :

- ما زال قولاً بالغ الخطورة .

صمت المهندس لحظة ، ثم قال فى شىء من العصبية :

- لو أن القول بالغ الخطورة ، فماذا عن الفعل ؟!

شعر القبطان بمرارة شديدة فى حلقه ، وهو يزدرد لعابه فى صعوبة ، قبل أن يقول فى ضيق ، امتزج بما تبقَّى من صرامته المهنية .

- إنها أمور سياسية عليا ، لا شأن لنا بها .

قال المهندس ، فى غضب مكتوم :

- ولكنا الساسة يصدرون قرارات فحسب ، أما نحن فمن نقتل ونُقتل ، ونريق دماء آلاف الأبرياء ، دون أية مبررات ، سوى تجربة أسلحة فتك رهيبة .

ثم استدار إلى القبطان ، مستطردًا فى شىء من الصرامة الغاضبة ، الذى لا يتناسب أبدًا مع فارق الرتب بينهما :

- هل تعتقد أن الرب سيغفر لنا هذا ؟!

بدا من الواضح أن العبارة قد أثارت توتر القبطان بشدة، وهو يعقد حاجبيه، قائلاً في عصبية :

ـ أنت رجل عسكري، ومن الخطأ أن تفكر بهذا الأسلوب .. العسكريون لا شأن لهم بالسياسة .. أو حتى بالدين .

هزّ المهندس رأسه، وهو يقول في حزم :

ـ عجبًا ! لماذا إذن يسمحون لنا بالإدلاء بأصواتنا، في كل انتخابات خاصة أو عامة ؟! ولماذا نتعامل جميعًا بنفس الدولار ؟!

التفت إليه القبطان في دهشة، متسائلاً :

ـ وما شأن الدولار بما نتحدث فيه ؟!

أخرج المهندس من جيبه دولارًا واحدًا، لوّح به في وجه القبطان، وهو يقول، باذلاً قصارى جهده؛ للسيطرة على نبرة حادة في أعماق صوته :

ـ ألم تلق نظرة واحدة على أي دولار، في حياتك كلها يا سيدي ؟! لو أنك لم تفعل، فدعني أخبرك أنه هناك عبارة أساسية، تعلو كل عملة أمريكية .. عبارة تقول (نحن نثق في الله(*)) ألا يعني هذا أن كلاً منا له شأن بالدين، شاء هذا أم أبى .

(*) حقيقة : (Ln Gop we trust)

ازداد انعقاد حاجبي القبطان، وهو يقول في عصبية :

ـ وما شأن ما نواجهه الآن بهذا ؟!

قال المهندس في سرعة، توحي بأنه كان ينتظر السؤال :

ـ ذلك السلاح، الذي فتك بقطعنا البحرية، كما لو كانت مجرد دمى، في حوض استحمام طفل صغير، ليس أحد أسلحتنا، وهذا يعني أنه سلاح عدو .. سلاح جهة، لا يمكننا مقاومتها، أو التصدي لها .. ألا تدرك يا سيدي ما يعنيه هذا ؟!

قال القبطان، في عصبية أكثر :

ـ إنها مسألة وقت فحسب .

كرّر المهندس، وكأنما لم يسمع ما قاله القبطان :

ـ ألا تدرك ما يعنيه هذا ؟!

سأله القبطان في حدة :

ـ وما الذي يمكن أن يعنيه هذا ؟!

مال المهندس نحوه، قائلاً بلهجة عجيبة :

ـ يعني أنه عقاب .. القوة التي امتلكناها، وأسأنا استخدامها،

فى قهر الآخرين ، واستعمارهم ، والسعى لفرض إرادتنا عليهم وجدت أخيراً من يهزمها ، ويقهرها ، ويفرض عليها إرادته .. صدقنى يا سيدى .. إنه عقاب .

احتقن وجه القبطان ، وبدا عليه ما يشبه الارتياع وتوترت كل عضلة فى جسده ، و ..

« سيدى القبطان .. انظر .. »

انطلق الهتاف فجأة ، من أحد زوارق الإنقاذ المطاطية ، ذات المحرك ، التى تشترك فى عملية انتشال الجثث ، فاستدار مع المهندس إلى مصدره ، فى آن واحد ، وهتف الأخير :

- ترى ماذا حدث ؟!

قال القبطان ، وجسده يرتجف انفعالاً :

- إنهم ينتشلون جثة جديدة .

قال المهندس فى حيرة :

- وماذا فى هذا ؟!

قال القبطان ، وهو يلتقط منظاره المقرب ، ويضعه على عينيه :

- ربما بها إصابة خاصة ، أو ...

بتر عبارته بغتة ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يميل إلى الأمام ، محدقاً فى تلك الجثة ، التى انتشلها طاقم الإنقاذ من المحيط ، والتى ترتدى ثياباً تخالف ثياب كل البحارة الآخرين ..

فوجه صاحب الجثة كان مألوفاً ..

بل ومعروفاً تماماً ..

بل وكانت صورته أمامه ، على شاشة الكمبيوتر ، منذ صدرت إليه الأوامر ، قبل عدة ساعات ، بالبحث عنه وانتشاله ..

كانت جثة (أدهم) .

(أدهم صبرى) .

* * *



٣- الإرهـاب..

احتقن وجه مدير المخابرات العامة المصرية فى شدة، مع انعقادة حاجبيه الشديدة، وهو يهب من مقعده الوثير، خلف مكتبه البسيط، هاتفاً:

- عثروا على جثته ؟! أى قول هذا يا رجل ؟!

أجابه مساعده فى مرارة، وهو يضع أمامه البرقية العاجلة، الواردة منذ دقائق قليلة، من الولايات المتحدة الأمريكية:

- القول الذى أبلغنا به الأمريكيون رسمياً يا سيِّدى .. لقد عثر طاقم المدمرة (أيزنهاور)، على جثة سيادة العميد (أدهم)، فى المحيط الأطلنطى، أثنـاء عمليـة انتشال جثث البحارة، الذين لقوا حتفهم، إثر ضربة الزعيمة للأسطول الأمريكى.

غمغم مدير المخابرات:

- مستحيل مستحيل.

نطقها، وهو يعاود الجلوس على مقعـده فى بطء، قبل أن يكمل فى انفعال، بذل جهداً مستميتاً لكتمانـه فى أعمق أعماقه:

- من كان يتصور أن هذا اليوم سيأتى.

هزّ المساعد رأسه، مقاوماً دموعه، وهو يغمغم فى أسى:

- كل نفس ذائقة الموت ياسيِّدى .. الله (سبحانه وتعالى) وحده حى لايموت.

غمغم المدير، فى أسى مماثل:

- ونعم بالله.

ثم رفع عينيه إليه فى حزم صارم، قائلاً:

- لابد أن نستعيد جثتـه بأى ثمن ... (ن - ١) لن يُدفن إلا فى أرض (مصر).

قال المساعد فى حزم مماثل:

- بالتأكيد يا سيِّدى .. بالتأكيد.

شعر المدير بغصة مؤلمة فى حلقه، مع مرارة فقد أفضل رجل فى الإدارة كلها، بل وربما فى كل أجهزة المخابرات فى العالم..

وعبر التاريخ..

وبكل مرارته وانفعاله، نهض من خلف مكتبه، واتجه إلـى نافذته، التى تطل على ساحة المبنـى، وظلّ يتطلّع عبرهـا لدقيقـة كاملة، عقد خلالها كفيه خلف ظهره، ولاذ مساعده

بالصمت التام ، احتراماً لمشاعره ، قبل أن يسأله المدير ، دون أن يلتفت إليه ، وقد حمل صوته كل الانفعالات ، التى لم يحاول إخفاءها هذه المرة :

ـ أجر الاتصالات اللازمة مع الأمريكيين فوراً ، وأخبرهم أننا نطالب بجثة رجلنا سليمة ، دون إجراء أية فحوص عليها ، أو عمليات تشريح أو غيرها .

غمغم المساعد ، وهو يستعد لمغادرة الحجرة ، وتنفيذ الأمر :

ـ فوراً يا سيدى .

استوقفه المدير ، وهو يلتفت إليه ، قائلاً فى حزم :

ـ ولكن المهمة لن تتوقف بموته .

توقف المساعد ، والتفت إليه فى بطء ، فتابع بنفس الحزم :

ـ (ن ـ ١) نفسه لم يكن ليرضى بهذا فى حياته .. موت فرد ، مهما كانت أهميته ، لا يعنى التخلى عن أمن (مصر) المباشر .. أو حتى غير المباشر .

لم ينبس ببنت شفة ، وإنما تطلع إليه فى ترقب ، انتظاراً لأوامره ، فواصل المدير بلهجة ، صارمة آمرة ، أخفت خلفها كل انفعالاته الأخرى جيداً :

ـ أجر اتصالا سرياً مؤمناً بالفريق الاحتياطى ، فى مقر البعثة الدبلوماسية ، وأبلغهم أن دورهم قد حان .

تردد المساعد لحظة ، قبل أن يتساءل :

ـ وهل أخبرهم بمصرع سيادة العميد (أدهم) ؟!

أجابه المدير فى سرعة وحزم :

ـ ليس بعد .

وصمت لحظة ، ثم أضاف بمنتهى الصرامة :

ـ ليس قبل أن نتأكد من الخبر .

ارتفع حاجبا المساعد فى دهشة ، وهو يقول :

ـ سيدى .. ولكن الأمريكيين أكدوا ..

قاطعه المدير بنفس الصرامة :

ـ مع رجل مثل (ن ـ ١) لا يمكنك أن تتأكد إلا بأمر واحد .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ أن ترى جثته بنفسك .

وخفق قلب المساعد فى قوة ..

ولكنه لم ينطق حرفاً واحداً ، للتعليق على عبارة المدير .. ففى أعمق أعماقه ، كان يدرك أن المدير على حق فى قوله ..

على حق تماماً ..

* * *

- « إرهاب ؟! »

اتسعت عينا مدير المخابرات الأمريكيـة ، فى مزيج من الدهشة والارتياع ، وهو ينطق اللفظ ، محدقًا فى وجوه الرئيس ، ووزير الدفاع ، ومستشارة الأمن القومى ، قبل أن يلوّح بيده فى حدة ، صائحًا بكل الاستنكار :

- لا .. لا يمكننى أن أشارك فى خدعة حقيرة كهذه .

احتقن وجه الرئيس الأمريكى فى غضب ، وانعقد حاجبا وزير الدفاع فى شدة ، فى حين اندفعت مستشـارة الأمن القومى ، تقول فى صرامة عصبية :

- وما وجه الحقارة فى هذا ؟! إننا لا نفعل ما نفعله ، إلا لتجاوز الأزمة ، ومنح المواطن الأمريكى أمنه وأمانه .

قال مدير المخابرات فى حدة :

- أمنه وأمانه ؟! رويدك ياسيدتى .. لست أنا من تلعبين معه لعبة سخيفة كهذه .

احتقن وجهها بدورها ، وهى تصرخ مستنكرة :

- لعبة ماذا ؟!

أجابها فى غضب صارم :

- لعبة تقليدية سخيفة .. دعينى أكرر العبارة ألف ألف مرة ، يا مستشارة الأمن القومى ، ولن أغيّر حرفًا واحدًا فيها ..

ثم أشار إلى صدره فى صرامة ، مستطردًا :

- ألا تعلمين من أنا ؟! ألا تذكرين كم سنة قضيتها فى المخابرات الأمريكية ، مسئولاً عن النشاط السوفيتى ، وعن متابعة شئون العالم الثالث ؟! هل تعرفين سر انهيار الاتحاد السوفيتى ، وسر تراجع دول العالم الثـالث ؟! إنهـا هـذه العبارة بالتحديد .. منح المواطن أمنه وأمانه .

قالهـا ، وأطلق ضحكة عصبية قصـيرة ، ثم تابع بنفس الصرامة :

- فى الاتحاد السوفيتى القديم ، وفى معظم دول العـالم الثالث ، يستخدم الحكام والمسئولون هذه العبارة ، كمبرر لاكتساب سلطات لا حدود لها ، وللاعتداء علـى حريـات المواطنيـن ، وخصوصيـاتهم ، وتقييـد حركـاتهم ، وحتـى سكناتهم ، فمن أجل الأمـن ، تبيح الأجهزة الأمنية لنفسها مراقبة الهواتف ، واستيقاف المواطنين ، وتقييد الصحف ، أو أوامـر ضبـط قانونيـة .. وهكـذا يفقـد المواطنـون حقوقهم ، وحريتهم ، ويفقدون بالتالى معها أمنهم وأمـانهم ، الذى كان الحجة الأولى لكل ما حدث .

سأله الرئيس فى توتر شديد :

- ما الذى تريد قوله بالضبط ، يا مدير المخابرات ؟!

التفت إليه مدير المخابرات ، قائلاً في نفس الصرامة ، دون مراعاة لأية قواعد أو أعراف :

- أريد أن أقول : إن (أمريكا) ، التي تدعون فعل كل هذا لحمايتها ، قد بدأت بالفعل رحلة الانهيار ، ومرحلة انتحار الحضارة ، التي بلغ الاتحاد السوفيتي نهايتها ، مع بداية تسعينات القرن العشرين ، وهذه الرحلة تبدأ بأن تتحول أجهزة الأمن ، من أجهزة حماية ، إلى أجهزة قمع ، وبأن يتحول الاهتمام الفعلي ، من تأمين المواطن البسيط ، ومنحه كل حقوقه وحرياته ، إلى السعي إلى تأمين الحكومة والإدارة ، وكبار المسئولين ، وضمان بقائهم واستمراريتهم .. وعندما تبدأ رحلة كهذه ، فالنهاية آتية لاريب ، مهما اتخذت أجهزة الأمن القوية من احتياطات ، ومهما مارست من تجاوزات .. هذا ما علمتني إياه سنوات الخبرة الطويلة ، في دراسة تطور وانهيار الحكومات ، والشعوب ، والحضارات .

ران الصمت تماماً على مكتب الرئيس الأمريكي ، بعد أن انتهى مدير المخابرات من حديثه الغاضب ، ثم لم تلبث مستشارة الأمن القومي أن قطعت هذا الصمت بتصفيق بطيء ، وهي تقول في مقت :

- محاضرة رائعة يا مدير المخابرات .

ثم اتجهت نحو جهاز الاتصال الخاص ، المعد لإجراء الحوار المباشر مع مستر (X) ، وهي تضيف في صرامة قاسية :

- ولكن الوقت لايكفي إلا لإلقائها خلف ظهورنا ، في الظروف الحالية .

انعقد حاجبا مدير المخابرات ، وقال في صرامة :

- لن أشارك في هذه العملية أبداً .

تراجع الرئيس في مقعده بتوتر ، في حين قال وزير الدفاع في عصبية :

- فليكن يا مدير المخابرات .. لاتشاركنا في هذه العملية ، ولكن إياك وأن تتفوه بحرف واحد عنها ، سواء الآن أو فيما بعد .

قال مدير المخابرات في حدة :

- السكوت على أمر كهذا ، يتساوى مع المشاركة فيه .

قالت مستشارة الأمن القومي في صرامة :

- والحديث عنه يعني تدمير مستقبلك تماماً ، بل ومحاكمتك بتهمة التآمر والخيانة أيضاً .

انعقد حاجبا مدير المخابرات في شدة ، وهو يرمقها بنظرة غاضبة ، ولكنها ضغطت زر الاتصال ، في الجهاز الخاص ، ثم اعتدلت ، مضيفة بنفس الصرامة :

ـ نحن أيضًا لدينا معلومات وملفات خاصة .. جدًا .

امتقع وجه مدير المخابرات ، في نفس اللحظة التي ظهر فيها ، على شاشة جهاز الاتصال الخاص ، وجه مستر (X) الغارق في الظلمة كالمعتاد ، وهو يقول :

ـ مرحبًا أيها السادة .. من الجميل أن نلتقي مرة أخرى .

أجابه الرئيس الأمريكي ، في سرعة وتوتر :

ـ لقد وقعنا عقد الاتفاق المعلوماتي ، وأرسلناه بالفعل إلى الجهة التي حددتها .

قال مستر (X) في هدوء :

ـ أعلم هذا يا سيادة الرئيس ، فلقد وصلتني بالفعل ، وقمت بتوقيع النسختين ، وأعدت إليكم نسختكم منذ لحظات .

هتف وزير الدفاع بمنتهى الدهشة :

ـ بهذه السرعة ؟!

وبدا مدير المخابرات شديد الاهتمام ، وهو يشير بسبابته ، قائلاً في لهفة :

هذا يعني أن مقرك السري قـ ...

قاطعه الرئيس بنظرة صارمة ، فتراجع ، واعتدل قائلاً في توتر :

ـ هذا يعني أنه يمكننا بدء تعاوننا فورًا .

صمت مستر (X) لحظة ، ثم قال في هدوء :

ـ بالتأكيد يا مدير المخابرات .. سأرسل إليكم على الفور ، قائمة أسماء الجواسيس والعملاء ، وسط قياداتكم العليا ، ولكنني أريكم أن تعلموا أن وسائلنا تختلف عن وسائلكم ، وربما كانت أكثر تطورًا منكم أيضًا ، فلا تحاولوا تعقبنا ، أو التعامل معنا كأعداء .

مط مدير المخابرات شفتيه ، وأشاح بوجهه بعيدًا ، في حين قال الرئيس في سرعة :

ـ لن نفعل هذا أبدًا .

وتساءل وزير الدفاع في لهفة :

ـ متى تصلنا تلك القائمة ؟!

ـ فورًا .

ولم يكد يتم كلمته ، حتى بدأ جهاز الفاكس الخاص بالرئيس يعمل ، وراح يطبع عدة أوراق متتالية ، التقطتها مستشارة الأمن القومي في لهفة ، والتهمت كلماتها في سرعة ، قبل أن تهتف في ارتياع :

- يا إلهي ! يا إلهي ! مستحيل !

اختطف منها مدير المخابرات الأوراق ، وطالعها بدوره ، ثم انعقد حاجباه في شدة ، وهو يسأل مستر (X) ، عبر جهاز الاتصال الخاص .

- أأنت واثق من الأسماء في هذه القائمة يا رجل ؟! إنها تضم عشرات ، ممن كنا نتصور أنه لا يرقى إليهم الشك لحظة واحدة قط .

أومأ مستر (X) بوجهه الغارق في الظلمة ، وقال في حزم :

- ستصلكم الملفات كاملة ، خلال ساعة واحدة ، مع كل التفاصيل ، والوثائق ، والصور ، والأدلة .

ناول مدير المخابرات الأوراق للرئيس ، فطالعها مع وزير الدفاع في سرعة ، ثم قال الأخير ، وقلبه يكاد يتوقف ، من شدة الانفعال :

- رباه ! الإدارة كلها تبدو لي ، وكأنها تسبح على بحر من الجواسيس يا سيادة الرئيس .

غمغم الرئيس :

- من كان يتوقع هذا ؟!

أما مستشارة الأمن القومي ، فقد التقطت نفسًا عميقًا ، للسيطرة على توترها وانفعالها ، ثم سألت مستر (X) في حزم :

- تلك الحقيرة ، هي التي حاولت تعقُّب اتصالك السابق بنا ، أليس كذلك ؟!

أجابها مستر (X) على الفور :

- بلى .. وهي تستخدم أسلوبًا شديد التعقيد ، وتكنولوجيا متطوِّرة للغاية ، توحي بأنها تستغل أقمار الاتصالات الخاصة بكم ، على نحو أو آخر .

غمغم مدير المخابرات في عصبية :

- لقد توصلت إلى شفرة الاتصال بالأقمار الصناعية ، بوسيلة ما ، وأصبحت تسيطر على السماء كلها من الناحية العملية .

صمت مستر (X) لحظة ، ثم تمتم :

- قد أجادت اللعبة بحق هذه المرة .

مطت مستشارة الأمن القومي شفتيها ، وقالت في توتر :

- إنها تطلب مئة مليار دولار ، من ذهب (فورت نوكس) هذه المرة .

قال مستر (X) في توتر ، لم يستطع كتمانه أو إخفاءه هذه المرة :

- رباه ! لو حصلت عليها ، ستصبح بالفعل أكبر قوة اقتصادية ، في العالم أجمع .

قالت مستشارة الأمن القومي في سرعة :

- وليس أمامنا ، في هذه المرحلة ، سوى تنفيذ مطالبها .

صمت مستر (X) طويلا هذه المرة ، ثم قال في ضيق واضح :

- هذا صحيح .. للأسف .

التقطت مستشارة الأمن القومي نفسًا عميقًا آخر ، ثم قالت :

- ولهذا ينبغي أن يبدأ تعاوننا الشامل .. فورًا .

ولم ينبس أحد الحاضرين بحرف واحد ، وهي تناقش الخطة الجديدة مع مستر (X) ، زعيم أقوى منظمة جاسوسية خاصة في العالم ..

فلقد بدا التعاون بينهما ، يتخذ مسارًا جديدًا ..

مسارًا عمليًا ..

وإرهابيًا ..

للغاية ..

* * *

حمل صوت مسئول الاتصالات ، في غواصة الزعيمة ، كل الارتياح والخضوع في وقت واحد ، وهو يقول ، عبر جهاز الاتصالات المتقدم :

- تمت استعادة شبكة الاتصالات أيتها الزعيمة .

مع قوله ، أضيئت الشاشات كلها دفعة واحدة ، في حجرة الزعيمة ، وبدا من الواضح أنها تعمل جميعها في كفاءة ، لتنقل إليها كل ما يدور في المكان ، فغمغمت في صرامة ، وهي تنفث دخان سيجارتها :

- عظيم .. لقد أنقذتم أعناقكم .

ثم اعتدلت على مقعدها ، وهى تستطرد فى شراسة قاسية :

ـ أريد الاتصال بكل رجالنا ، فى كل أنحاء العالم ؛ لمعرفة كل ما حدث فى العالم من تغيرات ، خلال الدقائق الأربعين ، التى انقطع خلالها اتصالاتنا .

أجابها الرجل ، وهو يرتجف بحق :

ـ كما تأمرين أيتها الزعيمة .. كما تأمرين .

أنهت الاتصال ، ثم التفتت إلى قائد قواتها ، الذى يقف مفرود القامة ، على قيد متر واحد منها ، ونفثت دخان سيجارتها نحوه فى بطء ، قبل أن تقول :

ـ والآن ، ماذا ينبغى أن أفعل بك .

قال الرجل ، فى توتر :

ـ لقد أديت واجبى أيتها الزعيمة .

هتفت فى غضب مستنكر :

ـ واجبك ؟!

سرت فى جسده ارتعادة مع هتافها ، وأمسكت يده مقبض المسدس ، المعلق فى حزامه ، بحركة غريزية ، انتبهت هى إليها جيدًا ، فعادت تتراجع فى مقعدها ، وتستعيد هدوءها وتماسكها ، وهى تقول :

ـ ما تسميه واجبك ، كلفنا الكثير للغاية يا رجل .. لقد فقدنا أسيرنا المصرى ، مع كل خطورته وأهميته ومعه عدد ضخم من رجالنا ، وأربعين دقيقة ثمينة ، يمكن أن يتغير خلالها وجه العالم كله .. كل هذا ولم نتأكد حتى من مصرعه .

انعقد حاجبا الرجل فى شدة ، وهو يعيد يده إلى جواره ، قائلاً فى عصبية زائدة :

ـ أى قول هذا أيتها الزعيمة ؟! لقد قرأت تقرير فريق الغوص الاحتياطى بنفسك ، واستجوبت رجاله بمنتهى الدقة ، وكلهم يؤكدون أن الانفجار قد نسف الحجرة تمامًا ، بكل ما فيها ، ومن فيها ، وتناثرت الأشلاء داخلها على نحو بشع ، ومن المستحيل أن ينجو مخلوق واحد من انفجار كهذا ..

ثم مال نحوها ، وامتزج غضبه بعصبية ، وهو يضيف :

ـ أى مخلوق بشرى .. طبيعى .

رمقته بنظرة صارمة ، وهى تلقى سيجارتها الطويلة بعيدًا ، ثم ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتيها ، وهى تقول :

ـ لقد قلتها .. أى مخلوق طبيعى .

قال فى حدة :

- وذلك المصرى لم يكن رجلاً خارقاً ، أتى من كوكب آخر أيتها الزعيمة .. لقد كان بشرياً مثلى ومثلك ، وبحكم خبراتى القتالية المتعددة ، يمكننى أن أجزم باستحالة بقاء أى بشرى على قيد الحياة ، داخل حجرة أصابها هذا .

غمغمت ، وهى تشعل سيجارة حمراء طويلة أخرى :

- بحكم خبراتك ؟!

شد قامته مرة أخرى ، وهو يقول فى صرامة :

- نعم أيتها الزعيمة .. بحكم خبراتى العسكرية الطويلة ، التى تعرفينها جيداً .. الخبرات التى اكتسبتها من القتال فى (البوسنة) ، وفى (العراق) ، و ...

قاطعته ، فى شىء من السخرية ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى بطء :

- قل لى أيها الـ .. البطل :

هل سبق لك أن قاتلت خصماً ما ، وجهاً لوجه ، وهو يحمل أسلحة تعادل أسلحتك ؟!

انعقد حاجبا الرجل فى توتر ، وهو يقول :

- ما الذى يعنيه هذا ؟!

لوحت بيدها الممسكة بالسيجارة فى أناقة ، قائلة بنفس اللهجة الساخرة :

- فقط كنت أتساءل : كيف يمكن أن يكتسب المقاتل خبرات كافية ، عندما يهاجم العزل والضعفاء ، وهو مدجج بالأسلحة ، ويرتدى دروعاً واقية من الرصاصات ؟!

انتفض جسده فى غضب ، وهو يقول :

- نظم القتال الحديثة تختلف عما سبق أيتها الزعيمة .. الجيوش الآن تحرص على حياة أفرادها وقادتها ، بكل ما تملك من وسائل .

تساءلت فى سرعة :

- وهل يحميكم هذا بالفعل ؟!

خيل إليه أن حديثها المستفز هذا يستهدف السخرية منه ، فانعقد حاجباه فى شدة ، وتراجع بحركة حادة ، وعادت يده تثب إلى مقبض مسدسه ، فرفعت هى أحد حاجبيها ، ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، وقالت فى هدوء :

- كل ما أردت قوله ، هو أن اهتمامكم بحماية أنفسكم ، والخوف على حياتكم ، هو نفسه الذى يمنح المقاومة ، فى (أفغانستان) و (العراق) كل قوتها .

قال فى حدة ، وصرامة :

ـ قولك لا معنى له أيتها الزعيمة .

أطلقت ضحكة طويلة ، ثم نفثت دخان سيجارتها ، وقالت :

ـ بالطبع .. قول كهذا ، لا يمكن أن يعنى لمثلك شيئاً ، فمن المستحيل أن يستوعب شخص ، يولى كل الاهتمام لحياته فى الحروب ، منطق رجل مقاومة ، أتى ليحاربه ، وهو أحرص على الموت ، منه إلى الحياة .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول فى حدة :

ـ بدأت تتحدثين مثلهم أيتها الزعيمة !

هزت كتفيها ، قائلة فى استهتار :

ـ لن يمكننى هزيمتهم ، إلا لو عرفت أسلوب تفكيرهم بالضبط .. « أليس كذلك ؟! »

بذل جهداً حقيقياً فى محاولة استيعاب قولها ، ثم لم يلبث أن طرح كل محاولاته جانباً ، وعاد يشد قامته ، قائلاً فى صرامة :

ـ فليكن أيتها الزعيمة .. المهم أن تكونى قد تأكدت الآن ، من أن ذلك المصرى ، قد لقى مصرعه فى الانفجار .. إنك لن تتصورى ما أصاب الحجرة ، عندما ..

قاطعته فى برود :

ـ ولماذا أتصور ؟!

ثم ضغطت أحد أزرار لوحة التحكم الرئيسية ، مستطردة :

ـ يمكننى أن أرى بنفسى الآن .

مع ضغطتها ، ظهرت على إحدى شاشات الرصد صورة حجرة معادلة الضغط ، التى نسفها الانفجار ، مع الأشلاء البحرية السابحة داخلها ، والتى انقضت عليها أسراب من الأسماك ، تنهش بقاياها نهشاً فى شراهة ، فتابعت هى :

ـ هل نسيت أننا نمتلك كاميرا مقاومة للماء هناك ؟!

غمغم الرجل ، وهو يتابع المشهد معها :

ـ كلا .. لم أنس .

ثم تنحنح ، واستطرد فى صرامة :

ـ ولكن هذا يؤكد ما حدث .

هزت كتفيها مرة أخرى ، ونفثت دخان سيجارتها ، قائلة :

ـ إنها مجرد أشلاء ، لا تحمل توقيعات أصحابها .

بدا صوته أشبه بالزمجرة ، وهو يقول :

- الرجال أحضروا عينات منها كما أمرتهم ، لمراجعتها على عينات الحمض النووى ، التى أخذتْ من ذلك المصرى ، أثناء غيبوبته .

قالت فى هدوء :

- هذا صحيح .

ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، قبل أن تتابع :

- فحص الحمض النووى ، وتحديد البصمة الجينية ، صار أهم معلومة فى العصر الحديث ، حتى إن علم الجاسوسية أضيف إليه فرع آخر ، وهو التجسس البيولوجى ، حيث أصبح الشغل الشاغل ، لعدد من رجال المخابرات ، فى عشرات الدول ، هو الحصول على أية عينات بيولوجية مؤكدة ، من القادة والزعماء ، فى كل أنحاء العالم ، حتى يمكن تحديد هوياتهم أو أشلائهم ، أو حتى كشف تاريخهم المرضى ، وموروثاتهم ، وسماتهم النفسية فى بعض الأحيان(*) .

انعقد حاجباه ، وهو عاجز عن استيعاب حديثها ، فضحكت مرة أخرى ، ثم قالت فى سخرية :

(*) حقيقة .

- هل يمكنك أن تتخيل هذا ؟! قطرة عرق منك ، أو نقطة دمع ، أو شعرة رأس ، أو حتى قليل من اللعاب ، تكفى لتعرف كل شىء عنك ، حتى هواجسك ونزواتك .

انتفض جسده فى عنف ، وهو عاجز عن استيعاب الموقف كله ، فابتسمت هى فى سخرية شديدة ، واستدارت إلى أجهزتها ، قائلة :

- لن يمكنك بالطبع تخيُّل هذا .

كانت سبابتها تتجه نحو زر الاتصال الرئيسى المؤمَّن ، عندما أضيئت إحدى شاشاتها فجأة ، وظهر عليها وجه مسئول اتصالاتها ، وهو يقول فى توتر بالغ عنيف :

- أيتها الزعيمة .. أعتقد أنه من الضرورى أن تطالعى هذا .

ومع آخر حروف عبارته ، اختفت صورته من الشاشة ، وحلت محلها نشرة أخبار الطوارئ ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وهى تذيع خبراً طارئاً للغاية ..

وانعقد حاجبا الزعيمة فى شدة ..

فالخبر كان مفاجئاً ومذهلاً ..

بحق .

* * *

٤ـ الخدعة الكبرى ..

سرى التوتر فى كل ذرة من كيان (منى توفيق) ، وهى تتلقى الأمر ببدء تنفيذ الخطة (ب) ، وغمغمت وهى تقرأ البرقية الشفرية العاجلة ، التى وصلت منذ لحظات من (القاهرة) :

ـ وماذا حدث للخطة (أ) ؟!

« ليس هذا من شأننا » .

أتى الصوت من خلفها مباشرة ، فاستدارت إلى (قدرى) ، الذى التهم قضمة كبيرة من شطيرته الساخنة ، قبل أن يتابع :

ـ هذا ما تعلمناه منذ البداية .. أليس كذلك ؟! المعرفة بقدر الحاجة .

قالت فى عصبية ، وهى تشعل النار فى البرقية :

ـ المفترض أن (أدهم) هو المسئول عن الخطة (أ) .

هز كتفيه المكتظين ، قائلاً :

ـ ومن أدراك ؟! لم يخبرنا أحد بهذا رسميًا .

قالت فى ضيق :

ـ إنها خبرة العمل .

ثم انخفض صوتها كثيرًا ، وهى تضيف :

ـ وقلب المحب .

ارتفع حاجبا (قدرى) ، وهو يتطلع إليها فى تأثر ، قبل أن يهز رأسه ، ويقول فى خفوت :

ـ كلاهما لا مجال له هنا .

تمتمت :

ـ أعلم هذا .

ثم شدت قامتها ، وراحت تشحن نفسها بشعور قائدة الفريق ، قبل أن تسأله :

ـ أين الباقون ؟!

أشار بيده الممسكة بالشطيرة ، قائلاً :

ـ (شريف) يعمل على الكمبيوتر كعادته ، و (ريهام) تحاول صنع قنبلة ، من مزج صابون الوجه بمثبت الشعر .

انعقد حاجباها قليلاً ، فى حين قضم هو قضمة أخرى من شطيرته ، ثم هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ لقد أحسن (أدهم) اختيار فريقه بحق(*) .

قالت فى حزم :

ـ إنه يحسن القيام بكل شىء .

رفع سبابته ، قائلاً فى حماس :

ـ أوافقك تماماً على هذا .

التقطت نفساً عميقاً ، لإحكام السيطرة على انفعالاتها ، ثم اتجهت فى خطوات قوية إلى الحجرة المجاورة ، وقالت بلهجة عسكرية صارمة :

ـ انتباه !

اعتدلت (ريهام) على الفور ، فى وقفة ثابتة ، فى حين ابتسم (شريف) ، وهو يقول :

هذا القول لايتناسب مع عمل المخابرات ، يا سيادة المقدّم .

أجابته (منى) فى صرامة :

ـ للضرورة أحكام .

(*) راجع قصة (الحدود) .. المغامرة رقم (١٣١) .

هزّ كتفيه فى بساطة ، والتفت إليها ، قائلاً :

ـ من حسن الحظ أننى لا أحمل رتبة عسكرية .

قالت (منى) بنفس الصرامة :

ـ من يدرى ؟! ربما كان هذا من سوء الحظ .

هزّ كتفيه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ ربما .

ابتسمت (ريهام) ، وهى تقول :

ـ معذرة يا سيادة المقدّم ، ولكن الذين لم يعتادوا العسكرية ، صعب عليهم التعايش معها ، فى أوقات الشدة .

غمغمت (منى) :

ـ للأسف .

ثم بدأت تتحرك فى المكان ، محاولة تخفيف الموقف ، وهى تتابع :

ـ والآن ، دعونا من كل هذا ، واستمعوا إلىّ جيداً .. لقد صدرت أوامر جديدة من (القاهرة) .

وتوقفت لتشد قامتها مرة أخرى ، مستطردة فى حزم .

ـ ببدء تنفيذ الخطة (ب) .

انعقد حاجبا (ريهام) فى توتر، على عكس (شريف)، الذى ابتسم، قائلاً فى حماس:

- عظيم.

ناولته (منى) أسطوانة كمبيوتر مدمجة، وهى تقول:

- هذه الأسطوانة تحوى كل تعليمات الخطة (ب)، بشفرة خاصة للغاية، وكان المفترض ألا نطالعها، إلا عندما تصدر أوامر بدء التنفيذ.

التقطها منها (شريف) فى رشاقة، ووضعها فى الجزء الخاص بها، من جهاز الكمبيوتر، وهو يقول:

- دعينا نرى ما تحويه.

بدأت أسطوانة الكمبيوتر عملها تلقائيًا، فور وضعها فى الجهاز، وظهرت على الشاشة رسالة، تطلب إدخال الرقم السرى، ومفتاح الشفرة الخاصة، فأدار (شريف) الجهاز نحو (منى)، قائلاً:

- تفضلى.

أدخلت (منى) الرقم السرى، ومفتاح الشفرة الخاصة فى سرعة، ثم أعادت الكمبيوتر إليه، وهو يحمل رسالة تعلن قبول ما أدخلته للتشغيل..

ثم بدأت الأسطوانة المدمجة عملها مرة أخرى، و ...

وفجأة، انطلق أزيز قوى، من جهاز الكمبيوتر، فهتف (شريف)، وأصابعه تقفز إلى لوحة الأزرار فى لهفة:

- يا إلهى!

سألته (منى) فى توتر شديد، والثلاثة يندفعون نحوه:

- ماذا يحدث بالضبط؟!

صاح بهم (شريف)، وأصابعه تتقافز بسرعة مدهشة، على لوحة الأزرار:

- إنها محاولة خارجية، لنسخ الأسطوانة.

هتفت (ريهام) فى دهشة:

- ولكن الكمبيوتر لا يتصل حتى بشبكة الهاتف.

صاح فى انفعال جارف:

- هذا النوع من الأجهزة المحمولة، يمكنه الاتصال بشبكات الإنترنت، عبر الأقمار الصناعية مباشرة.

تحركت (منى) فى توتر شديد، محاولة القيام بأى شىء، وهى تهتف:

- أخرج الأسطوانة إذن.

وهتف (قدرى) :

ـ أو افصل التيار عن الجهاز ..

صاح (شريف) ، وأصابعه تعمل بسرعة أكبر :

ـ إننى أحاول ، ولكن أحدهم يسيطر على الكمبيوتر تماماً ، ويمنع حتى محاولات إغلاقه .

سحبت (منى) مسدسها ، وهى تهتف فى صرامة :

ـ لا يوجد سوى حل واحد إذن .

أزاحت (شريف) جانبًا ، وهى تصوب مسدسها إلى جهاز الكمبيوتر المحمول .. ثم أطلقت النار ..

خمس رصاصات متتالية ، أصابت جهاز الكمبيوتر ، ونسفته نسفاً ، وتطايرت أجزاؤه فى كل مكان ، فتراجع (قدرى) هاتفاً :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

أما (شريف) ، فقد اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فى حطام الكمبيوت المحمول ، فى حين هتفت (ريهام) :

ـ ولكن كيف ؟! كيف ؟!

قالت (منى) فى صرامة ، وهى تعيد مسدسها المزوّد بكاتم للصوت ، إلى غمده المعلّق تحت إبطها :

ـ لست أدرى كيف حدث هذا ؛ فهذه مهمة (شريف) ، باعتباره خبير الكمبيوتر والاتصال ، ولكننى أستطيع أن أقول لماذا ؟!

وشدّت قامتها فى حزم ، مستطردة :

ـ أحدهم يعرف من نحن بالضبط ، وماذا نفعل هنا ، ويسعى لكشف كل أسرارنا .

قال (شريف) فى توتر :

ـ ولكن أحدهم هذا ليس شخصاً عادياً بالتأكيد ، فاختراق أى جهاز كمبيوتر ، يحتاج إلى دس برنامج خاص داخله ، ومثل تلك البرامج ، لا يمكن أن تتسلّل ، دون أن يكشفها برنامج متطوّر للغاية ، أضعه داخل الجهاز ، والتغلب على مثله ، يحتاج إلى تكنولوجيا شديدة التطوّر ، إلى حد يصعب أن يمتلكه شخص عادى .

هتفت (ريهام) :

ـ رباه ! هذا قد يعنى أن خصمنا هو أجهزة الأمن الأمريكية نفسها .

هزّ (قدرى) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ مستحيل يا بنيتى ! جوازات السفر الدبلوماسية ، التى حصلنا بها على تأشيرات الدخول سليمة ورسمية تماماً ، وليس من الممكن أن ..

قاطعته (منى) فى حزم، قبل أن يتم عبارته:

ـ هذا ليس أسلوب أجهزة الأمن الأمريكية .

وانعقد حاجباها، وهى تضيف فى توتر:

ـ إنه أسلوب أجهزة إجرامية .. ضخمة .

سألتها (ريهام)، فى سرعة واهتمام:

ـ مثل ماذا ؟!

أشارت (منى) بسبابتها، قائلة فى حزم:

ـ نعم .. هذا هو السؤال .. مثل ماذا ؟!

لم تكد تتم عبارتها، حتى هتف (قدرى)، وهو يحدق فى جهاز التليفزيون البعيد .

ـ رباه !

استدار الجميع فى سرعة إلى شاشة التلفاز، فى آخر الحجرة، والتى تذيع خبراً مثيراً بالفعل ..

مثير للغاية !

* * *

« هل تعتقدون أن الشعب سيصدق هذا ؟! »

ألقى الرئيس الأمريكى السؤال فى عصبية، وهو يتابع الخبر الطارئ الذى تذيعه كل القنوات الإخبارية بلا استثناء، فزفرت مستشارة الأمن القومى فى توتر، قائلة:

ـ ليس المهم أن يقتنع الشعب، فمن السهل إقناع العامة بأى شىء، فى ظل الخوف المستمر، الذى زرعناه فى النفوس، ومع التحذيرات الوهمية المتصلة، باحتمالات وقوع ضربات إرهابية عنيفة، من تنظيم (القاعدة) أو غيره من التنظيمات .. المهم أن تنجح فى إقناع (الكونجرس) بما رتبناه، مع حليفنا مستر (X) .

بدا وزير الدفاع شديد التوتر، وهو يقول:

ـ هذا ليس بالأمر السهل .

قالت فى حدة:

ـ ابذل أنت والرئيس قصارى جهدكما إذن، فى حين سأتولى أنا مسئولية شحنة الذهب، وترتيب تسليمها إلى تلك الحقيرة .

قال الرئيس فى عصبية:

ـ تتنصلين من المواجهات العسيرة كعادتك .

قالت فى غضب :

ـ بل أتولى الأمور الصعبة والمعقدة كالمعتاد .

قال وزير الدفاع فى عصبية :

ـ ومن أدراك أنها صعبة ومعقدة .. تلك الزعيمة لم تعلن حتى ترتيبات تسليم الشحنة بعد ؟!

قالت فى حدة :

ـ ستفعل حتماً ، عندما يروق لها هذا .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى أضيئت شاشة الاتصال ، الخاصة بلقاءات مستر (X) ، على نحو يجعل الرئيس يعتدل فى مقعده ، قائلاً فى توتر :

ـ لماذا يحاول هذا الرجل الاتصال الآن ، دون موعد سابق ؟! ترى هل يحمل لنا أخباراً جديدة ؟!

اعتدلت مستشارة الأمن القومى بدورها ، وهى تقول :

ـ أتعشم هذا ، ففى المرة السابقة ، قال : إنه قد يتوصل إلى هوية تلك الـ ...

بترت عبارتها بغتة ، واتسعت عيناها عن آخرهما فى ذهول ، وانتفض جسد الرئيس فى عنف ، فى حين قفز وزير الدفاع من مقعده ، صائحاً :

ـ مستحيل ..

فالصورة التى ظهرت على الشاشة ، لم تكن صورة مستر (X) ، بوجهه الغارق فى الظلمة كالمعتاد ..

بل كان وجهها هى :

وجه الزعيمة ..

ومع ظهور وجهها ، انطلقت من حلقها ضحكة عالية عابثة ، ارتجفت لها قلوبهم فى قوة ، قبل أن تقول فى سخرية :

ـ أراهن أن رؤيتى ، على هذه الشاشة بالتحديد ، قد أدهشتكم جميعاً .. أليس كذلك ؟!

مضت لحظات ثقيلة من الصمت ، قبل أن يقول الرئيس فى توتر بالغ :

ـ أظنك تربحين الرهان هذه المرة .

قالت الزعيمة فى سرعة :

ـ وكل المرات يا سيادة الرئيس .. أعدك بهذا .

عضت مستشارة الأمن القومى شفتيها فى قهر ، وسقط وزير الدفاع جالساً على مقعده ، فى حين نفثت الزعيمة دخان سيجارتها الحمراء الطويلة ، فى بطء واستمتاع ، قبل أن تقول :

- الواقع أننى لم أتوصل إلى الوكر السرى لحليفكم الجديد بعد ، فقد كان من الذكاء ، بحيث يقطع الاتصال ، بينه وبينكم ، فور إدراكه أننا نتعقبه ، ولكن الفترة التى مضت ، حتى إدراكه هذا ، مكنتنا من تحديد موجة الاتصال ، على نحو أتاح لى مفاجأتكم هكذا .

خيم عليهم الصمت الثقيل ، بضع لحظات أخرى ، بعد أن أكملت عبارتها الساخرة ، ثم قطعته مستشارة الأمن القومى ، وهى تقول فى حدة :

- ماذا تريدين هذه المرة بالضبط ؟!

أجابتها الزعيمة فى سرعة :

- أريد أن أخبركم أن عقد اتفاق التبادل المعلوماتى ، الذى وقعتموه مع مستر (X) ، كان أكبر حماقة ارتكبتموها ، فى حياتكم كلها .

امتقعت وجوه ثلاثتهم فى شدة ، واتسعت عينا وزير الدفاع فى ارتياع ، وهو يغمغم :

- ولكن كيف .. كيف ..

قاطعته الزعيمة مواصلة ، وكأنها لم تسمعه :

- أما قائمة الجواسيس والعملاء ، التى منحتكم إياها كهدية

توقيع ، فهى خاصة بمن يعملون فى صفوف قيادتكم العليا ، لحساب (الموساد) ، وليس لحسابى أنا .

هتفت مستشارة الأمن القومى :

- مستحيل .

تابعت الزعيمة بلهجة ساخرة ، وكأنما يروق لها كثيرًا اضطرابهم وتوترهم الشديد :

- أما الحماقة الكبرى ، فهى تعاونكم معه ، لتدبير ذلك الهجوم الإرهابى الساذج ، على قلعة (فورت نوكس) ، لتبرير استيلائكم على شحنة الذهب .

قال الرئيس فى توتر :

- كنا نحاول تدبير ما طلبتيه ، دون الدخول فى مشكلات سخيفة مع الكونجرس .

أطلقت ضحكة عابثة طويلة ، قبل أن تقول ، وهى تنفث دخان سيجارتها الحمراء فى استمتاع :

- ولكننى طلبت مائة مليار دولار من الذهب ، وليس مائة وسبعة مليارات .

كاد وزير الدفاع يذوب فى مقعده ، مع النظرة القاسية

الصارمة ، التى رمقه بها الرئيس الأمريكى ، فى حين قالت مستشارة الأمن القومى فى عصبية :

- كان الأمر سيبدو أحمقًا للغاية ، لو قلنا : إن الإرهابيين قد استولوا على ما قيمته مليار دولار من الذهب بالضبط .

أطلقت الزعيمة ضحكة طويلة أخرى ، ثم قالت فى سخرية :

- أن يبدو الأمر أحمقًا أكثر ، عندما تحاولون إقناع الكونجرس ، وكل الأجهزة الأمنية الأخرى ، بأن الإرهابيين قد أمكنهم بالفعل شن هذا الهجوم المزعوم ، على قلعة (فورت نوكس) ، بكل تحصيناتها الدفاعية القوية ، واستولوا على شحنة هائلة من الذهب بهذه البساطة ، فى ظل إجراءات أمنية مضاعفة مرتين ، بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م ؟!

ازدردت مستشارة الأمن القومى لعابها فى صعوبة ، وقالت فى توتر :

- لقد استعرنا الفكرة من فيلم سينمائى قديم ، ونفذنا الهجوم بالفعل ، عن طريق رش غاز منوّم ، عديم اللون والرائحة ، فى سماء المنطقة ، حتى فقدت كل قوات الأمن والحراسة وعيها ، وبعدها استخدمنا طائرة موجهة عن بعد ،

بدون طيار ، ومزوّدة بشحنة متفجرات ضخمة ، لتسقط على جدار خزانة الذهب ، وتنسف أسوارها ، ثم استخدم الرجال ، الذين استعنا بهم ، شفرة الدخول الرقمية ، التى زوّدناهم بها ، و ..

قاطعها الرئيس فى حدة :

- لماذا تشرحين لها كل هذه التفاصيل ؟! ما أدراك أنها لا تسجل كل حرف نطقت به الآن ؟!

انتفض جسد مستشارة الأمن القومى بمنتهى العنف ، كما لو أصابتها صاعقة قاتلة ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، فى ارتياع بالغ ، جعل الزعيمة تطلق ضحكة طويلة هذه المرة ، قبل أن تقول فى سخرية :

- لست بحاجة إلى تسجيل هذا ، أو حتى تفاصيل ما حدث هناك ، فى (فورت نوكس) ، فأقمار المراقبة الصناعية سجلت كل ما حدث ، ولدى فيلم شديد الوضوح لهذا ، يمكننى إعارتكم إياه فيما بعد .

ازداد وزير الدفاع انكماشًا فى مقعده ، وقد انهارت مشاعره كلها داخله ، على الرغم من غطرسته المعتادة ، فى الأزمات السابقة ، وظلت مستشارة الأمن القومى تحدق فى شاشة جهاز

الاتصال الخاص بعينين متسعتين مذعورتين ، فى حين تماسك الرئيس نفسه فى صعوبة ، وقال فى خفوت ، حمل كل توتر الدنيا :

ـ فليكن أيتها الـ .. الزعيمة .. كيف تريدين تسلُّم شحنة الذهب بالضبط ؟!

نفثت الزعيمة آخر أنفاس سيجارتها الطويلة ، ثم ألقتها بامتداد ذراعها عبر الحجرة ، قبل أن تقول فى صرامة :

ـ سأخبركم بتفاصيل وترتيبات تسليم الشحنة كلها ، ولكن بعد إجابتى على سؤال واحد .

ثم قسا صوتها ، وحمل رنة شرسة ، وهى تستطرد :

ـ هل عثرتم بالفعل على جثة (أدهم صبرى) ؟!

ازدرد الرئيس لعابه ، مجيبًا فى صعوبة :

ـ قبطان مدمرتنا (أيزنهاور) أبلغنا بهذا ، والمفترض أن الجثة فى طريقها إلى هنا الآن .

أشعلت سيجارة حمراء طويلة أخرى ، وهى تقول فى شراسة زائدة :

ـ أريد هذه الجثة ، مع شحنة الذهب .

بدا صوت وزير الدفاع شديد الشحوب ، وهو يقول :

ـ ولكن هذا مستحيل ! المصريين يطلبون هذه الجثة فى إصرار شديد .

قالت الزعيمة ، فى وحشية مخيفة ، امتزجت بشراستها :

ـ وأنا أصرّ على الحصول عليها ، مع شحنة الذهب .

تبادل الثلاثة نظرة ممتقعة شاحبة ، قبل أن يقول الرئيس فى عصبية :

ـ فليكن .

وأضافت مستشارة الأمن القومى فى حدة :

ـ على الرغم مما سيسببه لنا هذا ، من مشكلات مع المصريين .

أطلقت الزعيمة ضحكة وحشية ، وهى تقول :

ـ حقًا .

ثم اعتدلت فى مقعدها ، ونفثت دخان سيجارتها الجديدة ، فى وجه الشاشة مباشرة ، وهى تقول :

ـ على أية حال ، أنا أصرّ على منحكم هدية اتفاق ، تمامًا مثلما منحكم مستر (X) هدية توقيع .

مع قولها ، اختفت صورتها عن الشاشة ، وظهر بدلاً منها مشهد صاروخ يتم إعداده ، لحمل رأس نووى ، فى مهمة خاصة ، فى مكان تفترض سريته التامة ، فى قلب صحراء (نيفادا) الأمريكية ، فشهقت مستشارة الأمن القومى ، هاتفة فى ارتياع :

- رباه ! إنه ..

لم تستطع إكمال قولها ، ولكن الرئيس ووزير الدفاع استوعبا ما تعنيه ، دون الحاجة لنطق حرف واحد ..

فما ظهر على الشاشة ، كان ذلك الصاروخ ، الذى يتم إعداده بمنتهى السرية ؛ لإطلاقه نحو القمر الدفاعى ، الذى يحمل مدفع الليزر الفضائى ..

ومع الصورة ، انبعث صوت الزعيمة ، وهى تقول :

- أنتم تعرفون هذا الشىء بالطبع .. أليس كذلك ؟!

كم يؤسفنى كل ما تجشمتموه دون طائل .

مع آخر حروف كلماتها ، بدا الصاروخ على الشاشة ، وهو يتألق فى شدة ، قبل أن يدوى الانفجار فجأة ..

انفجار رهيب ، أطاح بالصاروخ ، وقاعدته ، وكل المبانى الصغيرة المحيطة به ، بكل ما فيها ، ومن فيها ..

وانتفضت أجساد الثلاثة مع الانفجار ، الذى بدا بشعًا رهيبًا على الشاشة ممتزجًا بصوت الزعيمة ، وهى تقول :

- من حسن حظكم ، أن الرأس النووى لم يكن قد وضع فى داخله بعد ..

قالتها ، وأطلقت ضحكة عابثة طويلة أخرى ، امتزجت هذه المرة برنة خاصة ، هوت معها قلوبهم جميعًا ..

- رنة شامتة ، ساخرة ..

وظافرة ..

فما حدث كان يعنى أنها ما زالت تمسك بزمام الأمور فى قبضتها ..

كل الأمور .

وأنها ، من الناحية العملية والفعلية ، قد صارت بالفعل صاحبة السيطرة .

السيطرة الكاملة .

* * *

٥ـ الاختيار..

لم يتمالك (قدرى) نفسه من الضحك، وهو يتطلع إلى هيئته الجديدة، فى مرآة الردهة الكبيرة، التى تتوسط ذلك المنزل الفسيح، فى ضواحى (واشنطن)، وقال وجسده الضخم يرتج بأكمله:

ـ لم أتصور نفسى قط فى هذه الهيئة.. إننى أبدو أشبه بخدم المنازل الإنجليزية العريقة.

قالت (منى)، وهى تثبت شعرها الأشقر المستعار على رأسها:

ـ المفترض أن هذا هو الدور الذى سنلعبه بالفعل، فى هذا المنزل الآمن الاحتياطى.

قال مبتسمًا:

ـ أعلم هذا.

ثم غمز بعينه، مضيفًا:

ـ أنسيت أننى من صنع بطاقات الهوية المزورة، التى ستتحركون بها، وسط النظم الأمنية الأمريكية الجديدة ؟!

كان ينتظر منها ابتسامة هادئة على الأقل، إلا أنها أجابته، فى شىء من الصرامة والحزم:

ـ كلا .. لم أنس.

ثم استدارت إلى (ريهام) و (شريف) مستطردة:

ـ هل تحفظان أدواركما جيدًا ؟!

أجابتها (ريهام)، بلهجة عسكرية حازمة:

ـ بالتأكيد يا سيادة المقدّم.

أما (شريف)، فقال فى توتر:

ـ إننا محترفون يا سيادة المقدّم، ولو راجعت ملفنا، ستجدين فيه توصية بهذا الشأن، بخط الأستاذ نفسه.

رفعت (منى) حاجبيها، مرددة:

ـ الأستاذ ؟!

أجابها فى توتر أكثر:

ـ نعم ... يا سيادة العميد (أدهم) شخصيًا.

استرجع ذهنها تفاصيل تلك العملية العنيفة، التى خاضها

(شريف) و(ريهام)، وزميلهما الراحل (علاء)(*)، تحت قيادة (أدهم)، في قلب (موسكو)، وتنهدت في عمق، قائلة:

- ليست لدى ذرة واحدة من الشك، في كفاءة أي منكم يا (شريف).

ثم لوحت بكفيها، قبل أن تتابع:

- ولكن ما يثير أعصابي، هو أن الأمر دقيق وبالغ الخطورة بالفعل هذه المرة، وانتقال (القاهرة) إلى الخطة (ب)، يعني أن الموقف قد تدهور كثيراً، خلال الخطة الأساسية.

وقاومت في صعوبة تلك الدموع، التي ترقرقت في عينيها، وهي تضيف:

- التي كان يتولاه (أدهم).

هتف (شريف) و (ريهام) في آن واحد:

- الأستاذ ؟!

ثم أضافت (ريهام) في غضب:

- ولماذا لم يخبرنا أحد بهذا ؟!

(*) راجع قصة (مدينة الذئاب) .. المغامرة رقم (١٣٧).

قالت (منى)، وهي تبذل جهداً أكثر؛ للسيطرة على مشاعرها:

- ليس من المفترض أن يفعل أحد هذا، فكل ما علينا هو أن نؤدي أدوارنا فحسب.

شدّ (شريف) قامته، وهو يقول في حزم:

- نحن مستعدون لفعل أي شيء في الوجود، من أجل الأستاذ.

وافقته (منى) بإيماءة من رأسها، قبل أن تتخذ أقرب مقعد إليها، قائلة بلهجة قلقة:

- هذا صحيح، ولكن ينبغي الآن أن نفعل أي شيء في الوجود .. من أجل (مصر) وحدها.

تبادل (شريف) و(ريهام) نظرة صامتة، ثم قال هو في اهتمام:

- إنني أحتاج إلى كمبيوتر محمول جديد، من أحدث طراز ممكن، وسأبذل قصارى جهدي؛ للحصول على تفاصيل الخطة، التي نجح خصومنا، أيًّا كانت هويتهم، في نسخها كاملة، قبل أن تنسف رصاصاتك الأسطوانة، يا سيادة المقدّم.

غمغمت (منى) :

ـ أنت تعلم أننى كنت مضطرة لهذا .

ثم أضافت فى حزم :

ـ ثم إن الخطة (ب) لم تعد لها أية فائدة ، بعد أن حصل الخصوم عليها ، وعلينا أن نلجأ إلى خطة جديدة .

وانعقد حاجباها ، وهى تضيف :

ـ وارتجالية .

تساءلت (ريهام) :

ـ ولماذا لا نطلب من (القاهرة) ، إرسال نسخة أخرى من الخطة الاحتياطية ؟!

هزّ (قدرى) رأسه ، قائلاً :

ـ لأنك لاتستطيعين استخدام أية شبكة اتصالات ، مهما بلغت درجة تأمينها ، قبل معرفة الكيفية ، التى أمكنهم بها نسخ أسطوانتنا الأولى .

أشار إليه (شريف) قائلاً فى حزم :

ـ بالضبط .

ثم أضاف فى حماس ، وهو يلوّح بكفيه فى الهواء :

ـ لهذا أريد جهاز الكمبيوتر الجديد .. لابد أن أعرف كيف فعلوا هذا ، قبل اتخاذ أية خطوة جديدة .

سألته (منى) فى اهتمام :

ـ وكيف يمكنك معرفة السبب ، بعد أن نسفت رصاصاتى جهاز الكمبيوتر القديم ؟!

أخرج قطعة معدنية من جيبه ، وهو يقول فى حماس :

ـ ليس كل قطعة منه .

سألته (منى) :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابها بنفس الحماس :

ـ إنه القرص الصلب الرئيسى ، للكمبيوتر المحطّم القديم ، فمن حسن طالعنا ، أو من حسن تصاريف القدر ، أن رصاصاتك قد تجاوزته ، دون أن تتلفه .

سأله (قدرى) فى اهتمام :

ـ ستقوم بنسخه إلى القرص الصلب ، فى الكمبيوتر الجديد .. أليس كذلك ؟!

أجابه (شريف) في سرعة .

ـ بل سأوصله به فحسب ، وأفحصه بمجموعة من البرامج الحديثة جداً ، والمتطورة جداً ، التي أحضرتها معي من (القاهرة) .

تساءلت (منى) :

ـ أهذا ممكن حقاً ؟!

كانت تنتظر جواباً من (شريف) ، ولكن (قدري) أجابها ، قائلاً :

ـ بالطبع .. كل شيء ممكن في عالم الكمبيوتر ، لو أن المرء يمتلك ما يكفيه ، لشراء كل ما يلزم .

قالت (منى) في حزم :

ـ سنشتري كل ما تحتاج إليه يا (شريف) .. وفوراً .

قال (قدري) :

ـ لقد منحوك تلك البطاقة الائتمانية البلاتينية .. أليس كذلك ؟!

قالت (منى) :

ـ إنني أحملها دوماً ، ولكنني لن أستخدمها هذه المرة

أشار إليها (شريف) ، قائلاً :

ـ قرار حكيم يا سيادة المقدم ، فبطاقات الائتمان يسهل تعقبها ، مهما بلغت قيمتها .

قالت (ريهام) بصرامة مفاجئة :

ـ لست أظن خصومنا بحاجة إلى هذا .

استدار الجميع إليها في تساؤل ، ورأوها تقف خلف ستارة النافذة مباشرة ، وهي تختلس النظر عبر فرجة ضيقة منها ، مستطردة :

ـ إنهم هنا بالفعل .

وصدمهم قولها بشدة ، فاندفعوا بدورهم نحو النافذة ، و(قدري) يهتف :

ـ ولكن كيف ؟!

قالت (منى) في سخط متوتر :

ـ لقد تبعونا حتماً ، في أثناء خروجنا ، من مقر البعثة الدبلوماسية .

قالت (ريهام) في دهشة :

ـ ولكننا خرجنا متنكرين ، في سيارة مغلقة .

قال (شريف) فى صرامة :

ـ هناك جاسوس لهم ، فى مقر البعثة الدبلوماسية حتمًا .

غمغمت (منى) ، وهى تستل مسدسها فى حزم :

ـ أو أجهزة تنصت ، تم زرعها فى أماكن خفية ، بدقة شديدة .

وفرك (قدرى) كفيه ، فى توتر شديد ، وهو يقول ، و(منى) تلقى نظرة ، عبر فرجة ستارة النافذة :

ـ ربما ألصقوا جهاز تعقب ، بالسيارة التى نقلتنا إلى هنا .

انعقد حاجبا (منى) ، وهى تراقب تلك التحركات المنظمة ، حول المنزل ، قبل أن تقول فى حزم ، وهى تستل مسدسها :

ـ أظننى أدين لكم بالاعتذار يا رفاق .

سألتها (ريهام) فى دهشة :

ـ الاعتذار ؟! ولماذا ؟!

جذبت (منى) مشط مسدسها ، وتركته ينزلق عائدًا إلى موضعه ، مع تكة معدنية مميزة ، وهى تجيب فى صرامة :

ـ هذا أسلوب أجهزة الأمن الأمريكية .

اتسعت عيونهم جميعًا فى دهشة ، وتساءل (قدرى) :

ـ ولكن لماذا ؟! لماذا تهاجمنا أجهزة الأمن الأمريكية ؟

ازداد انعقاد حاجبى (منى) ، وهى تقول :

ـ ليس هذا هو السؤال يا (قدرى) .. السؤال الحقيقى هو : لحساب من تهاجمنا أجهزة الأمن الأمريكية .

لم تكد تتم عبارتها ، حتى انفجر باب المنزل بمنتهى القوة ، و ...

وبدأ الهجوم ..

بمنتهى العنف ..

ومن كل الاتجاهات ..

* * *

« بل السؤال الحقيقى هو لماذا ؟! »

قالت الزعيمة العبارة ، وهى تنفث دخان سيجارتها فى بطء ، فالتقى حاجبا قائد قواتها فى قوة وتوتر ، وهو يتساءل :

ـ لماذا (ماذا) أيتها الزعيمة ؟!

هزت رأسها فى هدوء ، وهى تسأله :

ـ لماذا بقيت جثة (أدهم) وحدها سليمة ، فى الوقت الذى تمزقت فيه جثث باقى الرجال ، من شدة الانفجار ؟!

قال فى سرعة :

ـ ربما ..

ثم بتر عبارته ، فور تجاوز الكلمة لشفتيه ، وامتلأت نفسه بحيرة شديدة ، وهو يبحث عن جواب ..

أى جواب ..

وعندما طال صمته ، أطلقت هى ضحكة قصيرة ، ثم نهضت ، قائلة :

ـ لا تفكر فى جواب السؤال .. إنه يفوق قدراتك العقلية بكثير .

بدا عليه الغضب ، وهمّ بقول شىء ما ، إلا أنها قاطعته فى صرامة :

ـ ما أخبار (تيا) ، وحارس حجرة الطوربيدات ؟! لقد كدت أنسى أمرهم ، فى خضم الأحداث .

قال فى شىء من العصبية ، وهو يحاول كتمان مشاعره :

ـ ما زالوا فى زنزانتهم أيتها الزعيمة ، فى انتظار أوامرك .

أشاحت بوجهها عنه ، والتقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، نفثته فى عمق وبطء ، وهى تفكر طويلًا ، قبل أن تلتفت إليه مرة أخرى ، قائلة بلهجة آمرة صارمة :

ـ أريد ثلاثتهم فى قاعة التدريب .. الآن .

سألها فى اهتمام :

ـ وحدهم .

هزت رأسها فى بطء ، ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، قائلة :

ـ كلا .. أريد معهم ضباطك وجنودك أيضًا .. لابد أن يشاهدوا العقاب بأنفسهم .

وتراقصت على شفتيها ابتسامة وحشية جذلة ، وهى تضيف :

ـ وسيفيدهم هذا كثيرًا .

خرج قلقًا فواتها من حجرتها ، وهو يكاد يقسم أنها مجنونة تمامًا ، ولم تمض دقائق عشر ، حتى كان الجميع داخل قاعة التدريب ، كما أمرته تمامًا ..

(تيا) .

والحارسان الضخمان ..

والضباط والجنود ..

وهو ..

ومن المفارقات المدهشة أن (تيا) ، الصينية الحسناء ، كانت أكثر الجميع تماسكًا ..

فالضباط والجنود كانوا متوترين ، لرؤية زميليهما الحارسين ، اللذين راحا يرتجفان فى ارتياع ، فى حين بدا قائد القوات عصبيًا بشدة ، وهو يتساءل عن طبيعة العقاب ، الذى تدخره الزعيمة لرجليه .

كان من المفترض أن تصل الزعيمة إلى قاعة التدريب ، عقب وصول الجميع ، إلا أن ثلاث دقائق كاملة مضت ، دون أن تصل إلى المكان ، فغمغم قائد القوات ، وقد زاده تأخرها عصبية :

- متى ستأتى .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى أضيئت الشاشة الكبيرة فى قاعة التدريب فجأة ، وظهرت عليها صورة الزعيمة ، وهى تنفث دخان سيجارتها الحمراء الطويلة ، وتقول فى هدوء مخيف :

- أعلم أنكم تنتظرون قدومى جميعًا ، ولكننى رأيت أن اللقاء عبر شبكة الاتصالات ، سيناسب هذا الموقف أكثر .

مع نهاية قولها ، هبطت حواجز فولاذية بسرعة ؛ لتسد كل مداخل ومخارج القاعة ، وتعزلها عن باقى الغوّاصة تمامًا ، فسرت موجة من التوتر العصبى بين الجميع ، مع همهمة متسائلة ، جعلت الزعيمة تبتسم فى ظفر وقوة ، وهى تقول بنفس الهدوء المخيف :

- اطمئنوا .. إننى أمنح الأمر هيبته فحسب .

تمتم القائد فى عصبية :

- لابأس أيتها الزعيمة .. لابأس .

التقطت دخان سيجارتها فى بطء شديد ، ونفثته بمنتهى القوة ، وكأنما تتعمد استفزاز الضباط والجنود ، الذين تابعوها على الشاشة فى بطء ، قبل أن تقول ، فى صراحة مفاجئة :

- من أول القواعد التى وضعتها ، عندما بدأتم عملكم معى ، هى ألا يتلقى أى مخلوق أوامره ، إلا منى مباشرة ، عندما يتعلق الأمر بالعمليات الخارجية ، أو التغيرات الداخلية ، أو التعامل مع السجناء والأسرى .. أهذا صحيح ؟!

سرت همهمة خافتة ، فابتسمت ، ورفعت أحد حاجبيها وخفضته ، ثم اعتدلت فى مقعدها ، وأضافت بنفس الصرامة :

- ولكن ثلاثة منكم تجاوزوا هذه القواعد .

تطلعت العيون كلها إلى (تيا) والحارسين ، الذين وقفوا فى منتصف القاعة تمامًا ، فى حين تراجعت هى مرة أخرى ، لتسترخى فى مقعدها ، وتنفث دخان سيجارتها بنفس البطء ، ثم تقول ، مستعيدة ذلك الهدوء المخيف :

ـ لذا كان من الضرورى معاقبتهم .. وبمنتهى الصرامة .

سرت موجة توتر أخرى فى المكان ، وبدا قائد قواتها شديد العصبية ، وهو ينتظر أوامرها ، وراقبت هى ملامحه بضع لحظات ، على شاشة أخرى أمامها ، قبل أن تسأله فى هدوء رهيب :

ـ قل لى يا قائد القوات : هل تدين لى بولاء حقيقى ؟!

انتفض القائد ، وهو يقول فى توتر :

ـ بالتأكيد يا سيدتى .

سألته بنفس الهدوء :

ـ وهل يمكنك إثبات هذا ؟!

قال فى حذر :

ـ بالتأكيد .

نفثت دخان سيجارتها بمنتهى العمق ، وتطلعت إلى الضباط والجنود عبر شاشة الاتصال ، لنصف دقيقة كاملة ، قبل أن تقول بصرامة مفاجئة :

ـ أعدم حارسى حجرة الطوربيدات إذن .. فورًا .

انتفض جسد القائد مرة أخرى فى عنف ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، فصاحت فى صرامة وحشية :

ـ فورًا يا قائد القوات .

توتر الضباط والجنود فى شدة ، وارتجف الحارسان فى قوة ، وصرخ أحدهما ، وهو يسقط على ركبتيه :

ـ الرحمة .. الرحمة .

ولكن قائد القوات استل مسدسه ، وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يصوّبه نحو الحارسين ، قائلاً فى حزم :

ـ أوامرك أيتها الزعيمة .

انهار أحد الحارسين ، وصرخ الآخر فى رعب ، و ...

ولكن القائد ضغط زناد مسدسه ، دون ذرة واحدة من التردُّد ..

وانطلقت الرصاصات ..

واخترقت رأسى الرجلين ، فى مشهد بشع ، سقطا بعده جثتين هامدتين ، وسط بركة من الدم .. وانتفض الكل فى توتر عنيف ..

فيما عدا (تيا) ..

وحدها ظلت قوية ، متماسكة ، وكأنما لا تهتز فى جسدها شعرة واحدة ، مع مواجهة الموت والدماء ..

وفى حجرتها رفعت الزعيمة أحد حاجبيها ، وهى تراقب (تيا) ، ثم ابتسمت ابتسامة وحشية ، قائلة :

ـ عظيم يا قائد القوات .. عظيم .

ثم مالت إلى الأمام ، متابعة فى صرامة :

ـ والآن ، دعونى أعرض عليكم هذا المشهد .

وبضغطة زر واحدة ، راحت الشاشة الكبيرة تعرض مشهداً ، صوَّرته إحدى آلات المراقبة السرية ، منذ ساعات محدودة ..

مشهد (تيا) ، وهى تلتقى بقائد القوات ، وهو يقنعها بأن الزعيمة هى التى أمرت بالتخلُّص من (أدهم) .. وساد صمت رهيب ، داخل قاعة التدريب ، والكل يتابع حديث (تيا) وقائد القوات على الشاشة فى ذهول ..

أما قائد القوات نفسه ، فقد امتقع وجهه بمنتهى الشدة ، وأمسك مقبض مسدسه فى عصبية ، وهو يهتف :

ـ فليكن .. أنا فعلتها .. ماذا فى هذا ؟!

قالت الزعيمة فى صرامة ، وصورتها تعود إلى الشاشة الكبيرة :

ـ لقد خالفت القواعد الأساسية .

قال القائد فى حدة :

ـ الأحداث أثبتت أن موقفى كان صحيحاً مائة فى المائة .. لقد حاولت التخلُّص من ذلك المصرى ، قبل أن يفعل ما فعله بنا ، وقبل أن يدفع رجالنا الثمن بأرواحهم ، كما حدث بالضبط .

ثم التفت إلى ضباطه وجنوده ، صائحاً :

ـ لقد فعلت هذا من أجلكم يا رجال .. هل تفهمون ؟! من أجلكم .

كرَّرت الزعيمة ، فى صرامة وحشية :

ـ لقد خالفت القواعد ، وتستحق العقاب .

صرخ ، وهو يستدير إلى الشاشة فى حدة :

ـ أى عقاب ؟! إننى قائد هؤلاء الرجال .. كلهم يدينون لى بالولاء ، ولا أحد سيرفع سلاحه فى وجهى .

ابتسمت فى سخرية ، وهى تقول :

ـ إنهم مرتزقة يا رجل .

صرخ :

ـ ولكنهم رجال .. ولاؤهم لى وحدى .

اتسعت ابتسامتها الساخرة ، وقالت فى هدوء عجيب :

ـ مليون دولار نقداً ، لأوّل من يطلق النار ، على رأس القائد .

وقبل حتى أن تتم عبارتها ، استل الجميع مسدساتهم فى سرعة ، وانطلقت عشرات الرصاصات نحو قائد القوات ..

انطلقت لتنهال عليه كالمطر ، بلا هوادة ..

وبلا رحمة ..

واتسعت عينا الرجل عن آخرهما ، وتفجرت الدماء من كل مكان فى جسمه ، وسقط على ركبتيه ، والزعيمة تطلق ضحكة عابثة ، قائلة :

ـ هذا ما أردت قوله يا رجل .. إنهم مرتزقة .. ولاؤهم للمال وحده .

وهوى القائد على وجهه جثة هامدة ، وهى ما زالت تطلق ضحكتها العابثة ..

الظافرة ..

الطويلة ..

والوحشية ..

* * *

على الرغم من كل محاولاته ، لم يستطع مدير المخابرات الأمريكية إخفاء توتره وانفعاله ، وهو يجلس أمام شاشة اتصال خاصة ، فى مكتبه الشخصى ، ويلوّح بيده ، قائلاً :

ـ لا .. لست أتفق معكم أبداً .. ما تفعلونه قد يساهم فى تدمير الاقتصاد الأمريكى ، مع مرور الوقت ، ولكنه لن يساعد حتماً ، فى الإيقاع بتلك الغامضة !

أجابه مستر (X) ، الذى تبدو صورته على الشاشة ، بوجه غارق فى الظلمة كالمعتاد :

ـ ما يفعلونه ليس اختيارياً ، بل هو إجبارى ، بعد أن

بلغت هى ذلك الحد من القوة .. لقد كشفت موجة اتصالنا ، التى كنا نظنها بالغة السرية ، وكادت تكشف موقعنا السرى أيضًا ، لولا قوة وحساسية برامج كشف الاقتحام لدينا .

وتسلسله أيضًا !

قال مدير المخابرات فى ضيق :

- وعلى الرغم من هذا ، فمن الواضح أن جعبتك تحوى الكثير ، فها أنتذا تغيّر موجة الاتصال ، وتسلسله أيضًا !

قال مستر (X) فى هدوء :

- إننا لم نبلغ هذا الحد من القوة والبأس ، باستخدام أساليب نمطية أو محدودة .

هزّ مدير المخابرات رأسه ، وتراجع فى مقعده ، قائلاً :

- وعلى الرغم من قوتكم وبأسكم ، فقد كشفت هى كل الأمور ، كما لو أنها تمتلك كرة سحرية ، وأحكمت قبضتها وسيطرتها على كل الأمور .

قال مستر (X) فى صرامة :

- لن يدوم هذا طويلاً .

لوّح مدير المخابرات بيده ، وهو يقول فى توتر :

- ولن ينتهى بسرعة أيضًا .. إنهم سيسلمونها اليوم مائة مليار دولار ، من ذهب (فورت نوكس) ، الذى شاركتهم عملية نهبه المقتطعة ، وحصلت على خمسة مليارات دولار مقابل هذا .

تجاهل مستر (X) الجزء الأخير من العبارة ، وتساءل فى اهتمام :

- وكيف سيسلمونها شحنة هائلة كهذه ؟! هل تعلم كم تزن كمية من الذهب ، تساوى مائة مليار دولار ؟!

أومأ مدير المخابرات برأسه ، قائلاً :

- نعم .. أعلم ، فلقد احتاج الأمر إلى مخزن ناقلة بترول هائلة ، لحمل الشحنة إلى المحيط .

بدا الاهتمام الشديد ، فى صوت مستر (X) وهو يقول :

- إلى المحيط ؟! هل ستتم عملية التسليم فى المحيط الأطلنطى ؟!

أجابه مدير المخابرات ، بعد زفرة عصبية :

- نعم .. فى منطقة تم تحديدها بدقة من المحيط ، ولقد

صدرت الأوامر لكل قطع الأسطول ، بإخلاء تلك المنطقة ، وعدم الاقتراب منها ؛ لصنع دائرة آمنة تمامًا .

قال مستر (X) في بطء :

ـ ولكن عملية نقل شحنة ذهب هائلة كهذه ، سيحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل .

غمغم مدير المخابرات :

ـ بالتأكيد.

أدهشه أن قال مستر (X) في حماس :

ـ عظيم .

فاعتدل في مقعده ، وسأله في عصبية :

ـ وما العظيم في هذا ؟!

قال مستر (X) :

ـ لو أننا حددنا منطقة التسليم ، يمكننا إعداد خطة هجومية عنيفة ، نستخدم فيها مقاتلاتنا الخاصة ، لترد لتلك الزعيمة الصاع صاعين .

قال مدير المخابرات في دهشة :

ـ وبم يمكن أن يفيدنا هذا ؟!

سأله مستر (X) في خبث :

ـ هذا يتوقف على المقصود بكلمة (يفيدنا) هذه .. هل تعني أنتم كإدارة أمريكية ، أم نحن فحسب .

ردد مدير المخابرات في عصبية :

ـ نحن ؟!

أجابه مستر (X) في سرعة :

ـ نعم .. نحن .. أنا وأنت يا رجل .

انعقد حاجبا مدير المخابرات في شدة ، وهو يتساءل في توتر بالغ :

ـ أعرض جديد هذا ؟!

أجابه مستر (X) في حزم :

ـ نعم .. عرض خاص جدًا يا مدير المخابرات ، ومحدود جدًا أيضًا ، فإما أن تقبله الآن فورًا ، أو ترفضه فورًا ، أو ترفضه إلى الأبد .. إنها لحظة الاختيار .. والحسم .

تردد مدير المخابرات لحظة ، قبل أن يتساءل في حذر :

ـ وما طبيعة العرض بالضبط ؟!

أجابه مستر (X) :

ـ أن تنتهج النهج نفسه ، الذى انتهجه الرئيس ، ووزير الدفاع ، ومستشارة الأمن القومى .

ثم مال إلى الأمام ، مضيفًا فى صرامة :

ـ مصلحتك أولاً .

احتقن وجه مدير المخابرات ، وهو يتساءل :

ـ وماذا عن مصلحة (أمريكا) ؟!

أجابه مستر (X) فى سرعة : وكأنما كان يتوقَّع السؤال :

ـ وربما كان فيه مصلحة (أمريكا) أيضًا .

حدَّق مدير المخابرات فى الشاشة بضع لحظات ، ثم تراجع وهو يهزّ رأسه فى قوة ، قائلاً فى توتر :

ـ مستحيل ! تلك الحقيرة تمسك كل الخيوط فى أيديها ، وتسيطر على كافة الأمـور ، ومهما فعلنا ، فلن يمكننا أن نربح المعركة ، ونحن نجهل كل شىء عنها ، و ...

قاطعه مستر (X) فى حزم :

ـ هنا ستكمن نقطة تفوقنا ، على الإدارة الأمريكية بأكملها .

التقى حاجبا مديـر المخـابرات ، وهو يتطلَّع إليه فى تساؤل حائر حذر ، فعاد زعيم منظمة الجاسوسية الخاصة يميل إلى الأمام ، وهو يقول بلهجة حازمة ، حاسمة ، قوية :

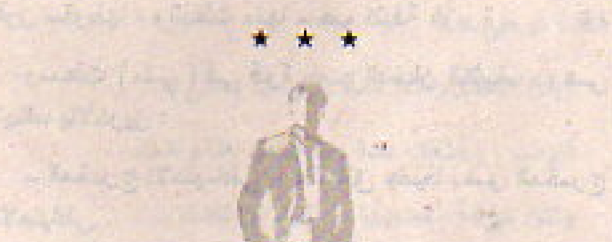
ـ فأنا أعرف مَن هى تلك الزعيمة الغامضة .. أعرف من هى ، ولدى الدليل على هذا أيضًا .

وانتفض جسد مدير المخابرات فى قوة ..

فقد كانت مفاجأة ، كفيلة بقلب الأمور رأسًا على عقب ..

كل الأمور .

* * *



٦ ـ مفاجأة فى المحيط ..

لم يكن الهجوم ، على ذلك المنزل الآمن الاحتياطى ، الذى يضم أفراد فريق الخطة (ب) عنيفًا فحسب ..

لقد كان شاملاً ..

كاسحًا ..

وساحقًا ..

ففى لحظة واحدة ، ومع انفجار باب المنزل ، تحطَّمت كل النوافذ دفعة واحدة ، بعدد من قنابل الدخان ، التى تفجَّرت فور سقوطها ، وانبعثت منها سحب كثيفة غزيرة ..

وسعلت (منى) فى قوة ، مع الدخان الكثيف ، وهى تهتف بالآخرين :

ـ المخرج الاحتياطى .. فلننطلق جميعًا نحو المخرج الاحتياطى .

كان فى الواقع أمرًا غير قابل للتنفيذ ، مع انعدام الرؤية ، وتضاريس المنزل غير المألوفة ، و ...

وذلك الهجوم الصاعق ..

فقنابل الدخان أعقبها فيض من جنود القوات الخاصة ، المدججين بالسلاح ، والمحتمين بدروع سميكة ، مضادة للرصاص ..

أكثر من مائة جندى ، يرتدون أقنعة مقاومة للغازات ، قادرة على الرؤية وسط الدخان الكثيف ، واندفعوا نحو أفراد الفريق بشراسة مخيفة .. ويمنتهى العنف ، تلقَّى (قدرى) ضربة على مؤخرة عنقه ..

وأصيب (شريف) بأخرى ، فى مقدمة رأسه ..

وحاولت (ريهام) المقاومة ، إلا أن عصا كهربية صدمت كتفها ، وأطلقت فى جسدها كله صاعقة عنيفة ، أسقطتها فاقدة الوعى ..

وبكل العنف والشراسة ، قاومت (منى) ..

قاومت ، وأطلقت عدة رصاصات هنا وهناك ..

ولكن خزانة مسدسها لم تلبث أن نفدت ..

فانطلقت قبضتها ..

وانطلق الجنود نحوها ..

ولم يستغرق الأمر ثوان معدودة ، مع هذا الفارق العددى الرهيب ، حتى سقطت (منى) بدورها ..

وانتهى القتال ..

وفى حزم صارم ، انتزع قائد مجموعة الهجوم جهاز الاتصال المحدود من حزامه ، وقال عبره :

ـ انتهت العملية .. نريد فريق تنظيف .

أتاه صوت يسأله فى اهتمام :

ـ كم بلغت نسبة الخسائر ؟!

أجابه القائد فى حسم :

ـ صفر فى المائة .. الدروع الواقية تلقت الرصاصات كلها ، والفارق العددى كان كاسحًا ، كما أن المفاجأة لعبت دورها كالمعتاد .

قال صاحب الصوت فى ارتياح :

ـ عظيم .

ثم اكتسب صوته لهجة حازمة آمرة ، وهو يضيف :

ـ سيصلك فريق التنظيف خلال دقيقة واحدة .

قال القائد فى صرامة :

ـ هذا أفضل ، فالعملية غير رسمية ، وغير مسجلة ، وأخشى أن تصنع منها الصحافة وأجهزة الأعلام قضية ضخمة .

أجابه صاحب الصوت ، فى صرامة أكثر :

ـ لا تشغل نفسك بمثل هذه الأمور .. اتركها لنا .

قال القائد :

ـ فليكن .

وأنهى الاتصال ، وجلس فى انتظار فريق التنظيف ، الذى سيعيد الأمور إلى ما كانت عليه .

وخلال دقيقة واحدة ، تم خلالها نقل أفراد الفريق المصرى إلى عربة مصفحة ، وانطلقت بهم بعيدًا ، ووصل فريق التنظيف ..

وبدأ عمله على الفور ..

وفى وجود حزام أمنى ، يمنع الجيران والفضوليين من بلوغ المكان ، بدأ فريق التنظيف عمله ..

واستغرق الأمر ساعة واحدة ..

ساعة ، عاد المنزل بعدها إلى ما كان عليه ، قبل الهجوم ..

وعندما انصرف فريق التنظيف ، كان من المستحيل أن تثبت أية جهة ، مهما بلغت كفاءتها أو مهارتها ، ومهما بلغت خبرة رجالها ، أن ذلك المنزل ، فى ضواحى (واشنطن) قد تعرض لهجوم ..

أى هجوم ..

على الإطلاق ..

* * *

بدت مستشارة الأمن القومى شديدة العصبية والتوتر ، على متن ناقلة البترول الأمريكية العملاقة ، التى تشق المحيط الأطلنطى ، حاملة فى قاعها شحنة هائلة من ذهب (فورت نوكس) ، تبلغ قيمتها مائة مليار دولار ..

وبكل عصبيتها وتوترها ، سألت قبطان ناقلة البترول :

- متى نلتقى بالمدمرة (أيزنهاور) ؟!

ألقى القبطان نظرة على ساعته ، وأجابها فى برود :

- خلال اثنتى عشرة دقيقة فحسب يا سيدتى .

وصمت لحظة ، ثم تساءل ، فى ضيق واضح :

- ولكننى أجهل فى الواقع ، لماذا ينبغى علينا أن نلتقى بمدمرة حربية ، من الأسطول الأمريكى ، فى قلب المحيط ، فى حين أنك أخبرتنا منذ البداية ، أن رحلتنا هذه سرية تمامًا ؟!

أجابته فى خشونة فظة :

- ليس هذا من شأنك .

انعقد حاجبا الرجل فى غضب ، أدركت هى بسرعة أنه كفيل بإفساد العملية كلها ، فاستدركت فى سرعة ، محاولة تلطيف أسلوبها :

- إنها أمور تتعلق بالأمن القومى .

غمغم القبطان ، دون أن يفارقه غضبه .

- بالتأكيد يا سيدتى .. بالتأكيد .

ألقت عليه نظرة مقت كعادتها ، ثم غادرت قمرته ، وهى تلتقط هاتفها المحمول ، متمتمة فى سخط :

- ويقولون : إننى أهرب من المواجهة .

لم تكد تغادر الغرفة ، لتجرى اتصالها الخاص ، حتى قال القبطان فى كراهية واضحة ، لم يحاول إخفاءها :

ـ يا لها من شخصية بغيضة !

تطلع إليه ضباطه فى صمت ، دون أن يجرؤ أحدهم على نطق كلمة واحدة ، فهز هو رأسه ، وتابع فى سخرية غاضبة :

ـ أمن قومى ! يا لها من حجة مكررة وسخيفة !

أما مستشارة الأمن القومى ، فقد ضربت أزرار هاتفها الخاص فى سرعة ، قبل أن ترفعه إلى أذنها ، مغمغمة :

ـ ترى كيف تسير الأمور هناك ؟!

مضت لحظات من الصمت ، قبل أن تسمع وزير الدفاع ، وهو يقول فى توتر :

ـ هل .. هل قمت بمهمتك ؟!

أجابته فى شىء من الغضب :

ـ ليس بعد يا رجل .. الأمر ليس بالسهولة التى تتصورونها .. طاقم ناقلة البترول متذمر للغاية ، ولابد أن نلتقى بالمدمرة (أيزنهاور) أولاً ؛ لتلتقط جثة ضابط المخابرات المصرى ، قبل أن نلتقى بتلك الحقيرة ، فى البقعة التى حددتها ، فى قلب المحيط .

غمغم فى عصبية :

ـ فليكن .. فليكن .

سألته فى اهتمام متوتر :

ـ وماذا عنكم ؟! ماذا تفعلون هناك ؟!

أطلق زفرة ملتهبة ، قبل أن يجيب :

ـ الكونجرس مشتعل للغاية .. النواب جميعهم غاضبون ، سواء الجمهوريين أو الديموقراطيين .. الكل يطالب بإجراء تحقيق على أعلى مستوى ، بشأن الاستيلاء على ذهب (فورت نوكس) ، ويبدو أن رئيس شعبة الأمن الداخلى ، سيصبح كبش الفداء للموقف كله .

قالت فى صرامة :

ـ فليذهب إلى الجحيم .. المهم أن يمضى الأمر بسلام .

قال الوزير بمنتهى التوتر :

ـ ليس بهذه البساطة .. الكونجرس يطالب بلجنة تحقيق مستقلة تماماً ، ترأسها لجنة من النواب ، على أعلى مستوى ، ولو حدث هذا ، فستكون التحقيقات دقيقة للغاية .

قالت فى حدة :

ـ وماذا فى هذا ؟! مستر (X) هو الذى قام بالعملية كلها ، ولو انكشفت الأمور ، ستصل أصابع الاتهام كلها إليه ، وليس إلينا .

قال فى عصبية :

ـ أنسيت أنه يملك عقدًا للتبادل المعلوماتى ، مع الإدارة الأمريكية الحالية ، يحمل توقيع الرئيس شخصيًا .

امتزج شىء من الخوف بصرامتها ، وهى تقول :

ـ وماذا فى هذا يا رجل ؟! هل تعتقد أنه سيبرز ذلك العقد يومًا ؛ ليعلنه للصحافة والإعلام ، مغامرًا بخسارة نهر متدفق من المعلومات ؟!

قال بعصبية أكثر :

ـ ربما يبرزه للدفاع عن نفسه .

قالت فى سرعة وصرامة :

ـ عقد ماذا ؟! إنه مجرد زعيم غامض مجهول ، لمنظمة جاسوسية غير معلنة .. من سيوجه إليه اتهامًا صريحًا ، يدفعه لمحاولة الدفاع عن نفسه ؟!

صمت الوزير بضع لحظات ، ثم قال فى توتر بالغ :

ـ فليكن .. ليس بيدنا سوى ما نفعله .

قالت بكل الصرامة :

ـ بالضبط .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت بنفس الصرامة :

ـ أبلغنى ما ستسفر عنه الأمور فورًا .

غمغم مرة أخرى :

ـ فليكن .. فليكن .

أنهى الاتصال من جانبه ، فمطّت هى شفتيها الغليظتين فى مقت وازدراء ، مغمغمة :

ـ من يسمع ارتجافته الآن ، لا يتصور أنه الشخص نفسه ، الذى كان يتحدث كالأسود ، وهو يعلن الحرب على (العراق) .

أعادت الهاتف إلى جيبها ، واستدارت عائدة إلى قمرة قبطان ناقلة البترول العملاقة ، ولم تكد تدلف إليها ، حتى استقبلها القبطان ، قائلاً فى برود :

ـ المدمرة (أيزنهاور) ستظهر خلال دقيقة واحدة .

هتفت فى لهفة :

ـ حقًا !!

لم تمض تلك الدقيقة ، حتى ظهرت المدمرة (أيزنهاور) بالفعل ، وهى تتجه نحوهم ، واستقبل جهاز الاتصال فى ناقلة البترول صوت قبطانها ، وهو يقول فى حزم :

ـ دقيقة واحدة وتبدأ عملية تسليم الشحنة المحدودة .

أجابه قبطان ناقلة البترول ، عبر جهاز الاتصال :

ـ نحن مستعدون للاستلام .

شعرت مستشارة الأمن القومى بقلبها يخفق فى قوة ، وهى تراقب المدمرة (أيزنهاور) ، التى راحت تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

ثم توقفت هناك على مسافة مائة متر من ناقلة البترول ، وهبط منها زورق مطاطى بمحرك آلى ، يحمل خمسة رجال ، يرتدون جميعهم زى رجال البحرية الأمريكية ، واتجه نحو ناقلة البترول ، فى نفس الوقت الذى انبعث فيه صوت قبطان (أيزنهاور) عبر جهاز الاتصال فى الناقلة ، قائلاً :

ـ الشحنة فى الطريق إليكم .

انعقد حاجبا مستشارة الأمن القومى فى شدة ، والتقطت

منظارًا مقرّبًا ، راحت تفحص به الزورق المطاطى ، الذى يقترب فى سرعة ، قبل أن تغمغم فى عصبية :

ـ أين تلك الجثة ؟!

انتفض جسد قبطان الناقلة ، وهو يهتف مستنكرًا :

ـ الجثة ؟! أية جثة ؟!

أدارت عينيها إليه بحركة حادة ، قائلة فى شراسة :

ـ ليس هذا من شأنك .

ولكن الرجل صاح فى وجهها بغضب :

ـ بل هو من شأنى يا سيدتى ، وأيًا كانت أهميتك ، فى الإدارة الأمريكية ، فأنا قبطان هذه الناقلة ، وحاكمها الأوحد بحكم القانون ، ولابد لى من معرفة كل ما يحدث هنا ، ونقل جثث الموتى ليس من اختصاصاتنا ، حتى لو تعلق هذا بالأمن القومى كما تدعين ..

أدركت مستشارة الأمن القومى أن الأمور تكاد تفلت من بين أصابعها ، فقالت فى توتر ، محاولة تهدئة الموقف :

ـ تلك الجثة لن تبقى هنا طويلاً .. سيتم تسليمها مع الشحنة فى قاع الناقلة .

قال فى غضب :

ـ حتى الشحنة التى نحملها ، تجهل كل شىء عنها .. مجرد صناديق هائلة من الصلب ، ثقيلة الوزن إلى حد رهيب .

قالت فى حدة ، وقد عجزت عن السيطرة على أعصابها :

ـ ليس من شأنك أن تعرف .

صاح بكل غضبه وثورته :

ـ بل هو من شأنى يا سيدتى ، و ..

قبل أن يواصل صياحه ، ارتفع فجأة صوت أحد بحارته من سطح الناقلة ، وهو يهتف :

ـ لقد وصل الزورق .

أدارت مستشارة الأمن القومى عينيها فى سرعة ، إلى حيث ارتفع صوت البحار ، ورأت بحارًا آخر يلقى حبلاً إلى الزورق المطاطى ، ثم خفق قلبها فى قوة ، عندما رأت شخصًا يتسلق الحبل ، إلى سطح المدمرة ، الذى وثب إليه فى خفة ورشاقة ، قبل أن يتجه مباشرة إلى قمرة القبطان ، وهو يرفع عن رأسه قبعة البحرية الأمريكية المميزة ، و ...

واتسعت عينا مستشارة الأمن القومى عن آخرهما ..

وانتفض جسدها كله فى عنف ..

وتراجعت كالمصعوقة ..

فما رأته أمامها ، فى تلك اللحظة ، كان مذهلاً ..

وإلى أقصى حد ...

* * *

« عجبًا ! »

غمغمت الزعيمة الغامضة بالكلمة ، فى شرود عجيب ، وهى تراجع إحدى صور الأقمار الصناعية ، التى نقلت مشهد الزورق الآلى المطاطى ، وهو ينتقل ، من المدمرة (أيزنهاور) ، إلى ناقلة البترول ، فسألتها الصينية الحسناء (تيا) فى حذر :

ـ هل حاولوا خداعنا أيتها الزعيمة ؟!

رفعت الزعيمة عينيها إليها ، وتطلعت إلى وجهها بضع لحظات فى صمت ، قبل أن تعتدل ، قائلة :

ـ هل تعلمين لماذا عفوت عنك يا (تيا) ؟!

رفعت (تيا) رأسها ، فى شىء من الاعتداد ، قائلة :

ـ لماذا أيتها الزعيمة ؟!

أجابتها الزعيمة فى صرامة :

ـ لأنك قوية ، صلبة ، مثابرة ، عنيدة ، قادرة على القتال حتى آخر لحظة ، دون هوادة أو تراجع .

ثم نهضت من مقعدها ، مستطردة :

ـ ولأنك امرأة .

ظلت (تيا) ثابتة فى مكانها ، فى حين دارت الزعيمة حولها ، متابعة :

ـ باختصار أنت صورة منى .. صورة يمكنها أن تتولى الأمور بكفاءة أفضل من أى رجل هنا .

وعادت إلى مقعدها ، وأشعلت سيجارة طويلة حمراء ، ثم لوحت بيدها ، الممسكة بصورة الأقمار الصناعية ، مواصلة :

ـ فى رأيى ينبغى أن تحكم النساء العالم اليوم .. لقد حصل الرجال على فرصتهم فى حكم العالم طويلاً ، وكانت النتيجة بشعة للغاية .. جوع ، وعذاب ، ودمار ، وخراب ، ونيران ، ودماء ، فى كل أنحاء الأرض .. الآن حان دورنا .. لابد أن تبدأ المرأة مرحلة حكمها ، لتثبت أنها الأفضل .. دائماً .

غمغمت (تيا) :

ـ إنها كذلك أيتها الزعيمة .

ابتسمت الزعيمة ، وهى تنفث دخان سيجارتها ، قائلة :

ـ بالضبط .

ثم ألقت الصورة إلى (تيا) ، التى التقطتها فى خفة ومهارة ، والزعيمة تقول :

ـ ما العجيب فى هذه الصورة ؟!

تطلعت (تيا) إلى الصورة فى اهتمام شديد ، قبل أن تقول فى حذر :

ـ إنها صورة عادية ، لخمسة من بحارة الأسطول الأمريكى ، داخل زورق مطاطى آلى ..

أشارت الزعيمة بسبابتها ، قائلة :

ـ بالضبط .. مجرد صورة عادية ، لزورق من المفترض أنه ينقل جثة (أدهم) ، من المدمرة (أيزنهاور) ، إلى ناقلة البترول ، التى تحمل شحنة الذهب .

ارتفع حاجبا (تيا) ، وهى تقول :

ـ جثة ؟! هذا الزورق لا يحمل أية جثث !!

كرّرت الزعيمة فى حزم :

ـ بالضبط .

ونهضت من مقعدها مرة أخرى ، وهى تواصل ، وكأنها تتحدث مع نفسها :

ـ ولو أضفنا هذا إلى السؤال السابق ، وهو لماذا لم تتمزق جثة (أدهم صبرى) ، كما تمزقت جثث باقى الرجال ، مع انفجار حجرة معادلة الضغط ، سنجد أنفسنا أمام جواب واحد لا غير .

تطلّعت إليها (تيا) بعينين متسائلتين ، تملؤهما اللهفة ، دون أن تنطق حرفًا واحدًا ، فتابعت الزعيمة فى حزم :

ـ إن (أدهم صبرى) لم يلق مصرعه بعد .

ارتفع حاجبا (تيا) ، فى دهشة حقيقية ، وهى تهتف :

ـ مستحيل ! الرجال يقولون : إن الحجرة ظلت مغمورة بمياه المحيط ، لأكثر من عشر دقائق كاملة ، وما من رئة بشرية يمكنها احتمال انعدام الهواء لكل هذا الوقت ، فى هذا العمق .

ابتسمت الزعيمة ، وهى تقول :

ـ هذا ليس المستحيل الوحيد فى الواقع ، فأى مخلوق بشرى لا يمكنه أن يصعد من هذا العمق إلى السطح أيضًا ، دون زى غوص خاص ، كالذى كان يرتديه رجالنا ، ولا أحد يمكنه أن ينجو من الانفجار ، الذى مزّق الرجال تمزيقًا ، وهذا يعنى أنه لو كان (أدهم صبرى) على قيد الحياة الآن ، كما أتوقّع ، فهو قد تجاوز ثلاثة مستحيلات ، وليس مستحيلاً واحدًا .

غمغمت (تيا) فى حذر :

ـ هذا صحيح .

نفثت الزعيمة دخان سيجارتها ، قبل أن تقول :

ـ دعينى أذكّرك أننا لا نتحدث عن شخص عادى ، وإنما عن (أدهم صبرى) ، أقوى وأخطر رجل مخابرات عرفه التاريخ .

غمغمت (تيا) :

ـ ولكنه مجرّد بشرى ، فى كل الأحوال .

قالت الزعيمة فى حزم :

ـ هل قرأت ملفه جيدًا ؟!

أجابتها (تيا) في سرعة وحزم :

ـ كل حرف منه .

أشارت الزعيمة بيدها ، قائلة :

ـ عظيم .. أنت تدركين مثلي إذن أنه مجرد بشري ، من الناحية التشريحية فحسب ، ولكنه في الواقع يمتلك عددًا مدهشًا من المهارات والخبرات ، مع سعة حيله ، وقدرة على الابتكار ، تجعله يفوق أي شخص عادي ، وبالذات في مواجهة المخاطر ، التي يجيد التعامل معها أكثر ، كلما تشابكت ، وتعقّدت ، وبلغت حد الاستحالة .

قلبت (تيا) كفيها ، وهي تتساءل :

ـ ولكن كيف يمكن أن ينجو من كل هذا ؟!

نفثت الزعيمة دخان سيجارتها الحمراء مرة أخرى ، وهي تقول :

ـ لقد طرحت السؤال نفسه على ذهني أكثر من مرة ، طوال فترة انقطاع الاتصالات المتطوّرة ، ولكن ما أن عادت الشبكة إلى العمل ، وأمكنني استخدام كاميرات الرصد المضادة للماء ، في حجرة معادلة الضغط ، حتى أمكنني استيعاب الموقف كله .

استمعت إليها (تيا) في اهتمام ، وهي تتابع :

ـ الحجرة كانت تحوي زورقًا مطاطيًا صغيرًا ، مزودًا بمحرك آلي ، وأسطوانة هواء مضغوط ، لملئه بسرعة ، في ظروف الطوارئ .

غمغمت (تيا) ، وعقلها لم يستوعب الأمر بعد :

هذا صحيح .

واصلت الزعيمة ، في هدوء عجيب :

ـ ذهني يرسم صورة واضحة لما حدث داخل الحجرة ، فور تدفّق مياه المحيط إليها .. لقد تحرك (أدهم) بسرعة مدهشة كعادته ، وجذب صمام أسطوانة الهواء المضغوط ، ليمتلئ الزورق المطاطي في لحظات ، وعندما غمرت مياه المحيط الحجرة بأكملها ، ارتفع معها الزورق المطاطي ، ليلتصق بالسقف ، ولكنه كان يمتلئ بالهواء ، الذي بدأ (أدهم) يتنفّسه في انتظام ، عبر الصمام الجانبي .

ارتفع حاجبا (تيا) مرة أخرى في دهشة ، وهي تقول :

ـ عجبًا ! هذا يبدو منطقيًا تمامًا ، بالنسبة للبقاء داخل الحجرة المغمورة بمياه المحيط ، ولكن ماذا عن الضغط الشديد ، عند هذا العمق ؟!

قالت الزعيمة فى عمق :

ـ لو راجعت معلوماتك الفيزيائية ، لوجدت أن وجوده داخل الحجرة ، يمنع عنه ضغط المياه خارجها .

قالت (تيا) فى سرعة :

ـ ولكنه لم يكن يتوقَّع البقاء داخلها إلى الأبد بالتأكيد !

أطلقت الزعيمة ضحكة ساخرة ، ونفثت دخان سيجارتها فى قوة ، قبل أن تقول :

ـ وتدعين أنك قد قرأت ملفه كله ؟! يا للسخافة ! لو أنك تعرفين نصف ما أعرفه عن (أدهم) لأدركت أنه لاعب شطرنج ماهر للغاية .. بل وعبقرى أيضًا .

رددت (تيا) فى حذر حائر :

ـ شطرنج ؟!

أجابتها الزعيمة فى هدوء ، يحمل لمحة من النشوة :

ـ نعم .. لاعب شطرنج عبقرى ، يمكنه أن يتوقَّع تحركات خصمه ، وخطواته التالية ، لعدة نقلات تالية ، ومن هذا المنطلق ، أمكنه أن يتوقع ما سنفعله حتمًا ، فى ظل غياب شبكة المراقبة والاتصالات .. الطبيعى أن نرسل فرقة

غوص ، للتأكُّد من مصرعه ، وكل ما عليه عندئذ ، هو أن يصنع كمينًا بسيطًا ، يستقبل به تلك الفرقة .

أشارت (تيا) بيدها ، قائلة فى اعتراض :

ـ إنهم خمسة رجال مسلحين ، وهو رجل واحد أعزل .

انعقد حاجبا الزعيمة فى شدة ، وهى تقول فى صرامة مثلجة :

ـ من الواضح أنك تجهلين تمامًا من هو (أدهم صبرى) .

قالت (تيا) ، محاولة تبرير موقفها :

ـ أعلم أنه شخص غير عادى ، ومقاتل من طراز نادر ، وإلا ما أمكنه التغلُّب علىَّ ، ولكنه كان تحت سطح المحيط ، بدون أجهزة غطس ، فى مواجهة خمسة من رجال الضفادع البشرية المحترفين .

لوَّحت الزعيمة بيدها فى قوة ، قائلة فى صرامة شديدة :

ـ هذا لن يصنع فارقًا ، بالنسبة لرجل مثله .

بدت (تيا) شديدة الاهتمام ، وراح صدرها يعلو ويهبط ، فى انفعال عجيب ، وهى تقول :

ـ إذن فقد باغت رجالنا فى الأعماق ، وأعد لهم كمينًا ، وهم يتوقعون العثور على جثة هامدة .

استعادت الزعيمة هدوءها ، وهى تقول :

ـ بالضبط .

تلاحقت أنفاس (تيا) أكثر ، وهى تقول :

ـ وهزمهم جميعًا ؟!

لوّحت الزعيمة بيدها ، وهى ترفع حاجبيها وتخفضهما ، دون أن تجيب ، سوى بابتسامة غامضة ، جعلت (تيا) تواصل ، وانفعالها يتزايد أكثر وأكثر :

ـ أراهن أنه قد استولى على إحدى بذلات الغوص الخاصة بالأعماق أيضًا ، و ...

بترت عبارتها بغتة ، ثم تساءلت فى توتر :

ـ ولكن ماذا عن الاتصالات ، التى تمت بيننا وبين طاقم الغوص طوال الوقت ؟!

ابتسمت الزعيمة فى سخرية ، وهى تقول :

ـ لاحظى أننا كنا نتحدث إليهم ، فى حين كانت ردودهم على شكل رسائل قصيرة ، يمكن لأى مخلوق إرسالها ، عبر أجهزة الاتصال المحدودة .

تراجعت (تيا) مغمغمة ، وقد استوعبت الأمر :

ـ آه ..

ثم استعادت انفعالها ، وهى تتابع :

ـ ولأنه لاعب شطرنج ماهر ، فقد استنتج أن الإبلاغ عن أن الجثة محشورة فى ركن الحجرة ، سيدفع القائد الـ .. القديم إلى طلب استخدام المشاعل تحت المائية ، دون أن ينتبه إلى أنابيب الغاز ، المستخدم فى تعديل الضغط ، والتى تمتد على جدران الحجرة .

رفعت الزعيمة حاجبيها فى إعجاب ، ثم خفضتهما قائلة :

ـ بالضبط .. بدأت تستوعبين الأمر يا (تيا) .

تساءلت (تيا) فى لهفة :

ـ ولكن كيف أحدث الانفجار ، دون أن يصاب خلاله كالآخرين ؟!

ألقت الزعيمة بقايا سيجارتها إلى آخر الحجرة ، وهى تقول :

ـ ليس بالأمر العسير يا (تيا) .. يمكنه أن يشعل أحد تلك المشاعل تحت المائية ، عند طرف أنابيب الغاز ثم يتعلّق بالزورق المطاطى ، ويدفعه خارج الحجرة ، وعندئذ ، سيحمله الزورق بسرعة إلى مسافة بعيدة ، بالقدر الكافى لحمايته من الانفجار ، الذى سيحدثه المشعل تحت المائى ، عندما تثقب حرارته أنابيب الغاز .

ارتفع حاجبا (تيا) وهى تقول فى انفعال جارف :

ـ رباه ! لو فعل هذا فهو عبقرى حتماً .

أشعلت الزعيمة سيجارة أخرى ، وهى تقول فى نشوة غريبة .

ـ إنه كذلك .

ارتجف جسد (تيا) ، من فرط الانفعال ، وهى تؤيدها ، قائلة :

ـ نعم .. إنه كذلك .

رمقتها الزعيمة بنظرة غامضة ، قبل أن تسألها :

ـ هل تعتقدين أنه سيتعلق بالزورق ، حتى يصل به إلى السطح ؟!

أجابتها (تيا) فى سرعة :

ـ كلا بالطبع .

ثم استطردت فى حزم :

ـ لابد أن يتخلى عنه ، بعد حدوث الانفجار مباشرة ، وأن يكمل طريقه وحده ؛ لأن أى غواص محترف يعلم جيداً ،

أن الصعود إلى السطح بسرعة كبيرة من الأعماق ، يؤدى إلى تكون فقاقيع الغاز فى الأوردة والأوعية الدموية ، مما قد يسبب الوفاة(*) .

نفثت الزعيمة دخان سيجارتها فى بطء شديد ، وهى تتأملها بنظرة غامضة ، قبل أن تقول :

ـ لديك خبرة معقولة فى الغوص يا (تيا) .

انحنت (تيا) انحناءة خفيفة ، وهى تقول فى دهاء :

ـ ليس بمثل خبرتك يا سيدتى .

تراجعت الزعيمة فى مقعدها ، وتطلعت إليها لحظة ، ثم عادت تسألها ، فى شىء من الصرامة :

ـ والآن ما الذى يمكن أن تعنيه هذه الصورة ، فى ضوء المعلومات الجديدة ؟!

عادت (تيا) تتطلع إلى صورة القمر الصناعى فى إمعان ، قبل أن ترفع عينيها إلى الزعيمة ، قائلة :

ـ (أدهم صبرى) هو أحد ركاب هذا الزورق .

(*) حقيقية علمية .

أشارت الزعيمة بسبابتها ، قائلة فى حزم :

ـ بالضبط .

ثم نهضت من مقعدها ، بحركة حادة مفاجئة ، وهى تتابع :

ـ وهو الآن على متن ناقلة البترول ، التى تحمل شحنة الذهب .

تقارب حاجبا (تيا) ، وهى تقول :

ـ يمكننا إعادته إلينا إذن .

صمتت الزعيمة بضع لحظات ، وهى تفكّر فى عمق ، قبل أن تقول :

ـ لن يدهشنى لو أنه هو نفسه يخطط للعودة إلينا مع الشحنة .

ارتفع حاجبا (تيا) لحظة فى دهشة ، ثم عادا ينخفضان فى سرعة ، وهى تقول :

ـ إننى أثق فى توقعاتك تماما يا سيدتى .

غرقت الزعيمة فى تفكير عميق ، لبضع لحظات أخرى ، قبل أن تسأل (تيا) فجأة :

ـ أخبرينى يا (تيا) .. هل تعلمين أن درجة الحرارة ، اللازمة لإذابة الذهب ، تقل كثيراً عن تلك الدرجة القادرة على إذابة الحديد أو الفولاذ ؟!

تساءلت (تيا) فى حذر :

ـ أعلم هذا أيتها الزعيمة ، ولكننى أجهل بم يمكن أن يفيدنا هذا ؟!

أشارت الزعيمة بيدها ، قائلة :

ـ بالكثير يا عزيزتى (تيا) .. بالكثير .

قالتها ، وأطلقت ضحكة عالية ..

ضحكة بدت للصينية الحسناء غامضة ..

ومخيفة ..

إلى حد رهيب .





٧ ـ الهجـوم ..

حمل صوت مساعد مدير المخابرات العامة المصرية كل توتر الدنيا ، وهو يندفع إلى مكتب المدير ، هاتفًا :

ـ كارثة يا سيادة الوزير .. كارثة .

انعقد حاجبا المدير فى شدة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ كارثة ؟! ما الذى تقصده بهـذه الكلمة يا رجل ؟! ماذا حدث ؟!

أجابه المساعد فى انفعال :

ـ فريقنا الاحتياطى فى (واشنطن) تمت مهاجمته بأسلوب احترافى عنيف ، من قبل جهة غير معروفة .

ازداد انعقاد حاجبى المدير ، وهو يقول فى توتر :

ـ هجوم احترافى عنيف ، من جهة مجهولة ؟! هل تعنـى أنه قد تمت تصفيتهم جميعًا ؟!

هزّ المساعد رأسه نفيًا ، وهو يقول فى انفعال :

ـ لست أعتقد هذا يا سيّدى .. شـهود العيان يصفون هجومًا رهيبًا ، باستخدام المتفجرات وقنـابل الدخـان ، تم بوسـاطة

مائة رجل على الأقل ، يرتدون جميعهم أزياء قوات مكافحـة الإرهاب ، ويؤكدون فى الوقت نفسـه خـروج أربعـة مـن المصابين المدنيين ، إلى سيارة إسعاف كبيرة ، وهذا يوحـى بأن فريقنا تم اعتقاله ، وليس تصفيته يا سيّدى .

تراجع المدير فى مكتبه ، وداعب ذقنه بسبابته وإبهامه ، وهو يراجع ذلك الموقف فى ذهنه ، قبل أن يسأل فى اهتمام :

ـ هل أصدر الأمريكيون تصريحًا رسميًا بما حدث ؟!

مرة أخرى ، هزّ المساعد رأسه نفيًا ، وقال :

ـ مطلقًا يا سيّدى ، وكل الجهات الأمنية الرسمية أنكرت كل صلة لها بالأمر ، بل واستنكرت حدوثـه أيضًا ، وعلى الرغم من أقوال الشهود ، التى تم التأكُّد منها مرتين ، فرجالنا فى (واشنطن) يؤكدون أن منزلنا الآمن الاحتياطى هنـاك يبدو سليمًا تمامًا ، دون أدنى أثر لأى هجوم ، من أى نوع .

قال المدير فى حزم :

ـ لقد تم استخدام فريق تنظيف ، لإخفاء كل أثر للهجوم ، حتى لا يمكن إثبات حدوثه ، بأى حال من الأحوال .. آه .. إنه أسلوب يميّز عمل جهة بعينها .

مال المساعد ، وهو يقول :

ـ المخابرات المركزية الأمريكية.

عاد حاجبا المدير ينعقدان ، وهو يقول :

ـ ولكن لماذا تلجأ المخابرات المركزية إلى هذا الأسلوب ، فى نفس الوقت الذى يبلغ فيه تعاوننا الحد الأقصى ، منذ سنوات طوال ؟!

التقط المساعد نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ ربما لأننا لم نبلغهم بأمر فريقنا يا سيدى .

أشار المدير بيده ، قائلاً فى حزم :

ـ فى هذه الحالة كانوا سيعلموننا بالأمر على الأقل حتى ولو أخفوه عن وسائل الإعلام والصحافة ، وكانوا سيبدون غضبهم واعتراضهم الشديد .

وصمت لحظة للتفكير العميق ، قبل أن يهز رأسه ، متابعًا :

ـ كلا .. هناك أمر غير مفهوم .

ثم التقط سماعة هاتف الخط الساخن من جواره(*) ، مستطردًا فى صرامة :

ـ وربما كانت لدى الأمريكيين بعض الأجوبة .

لم تمض ثوان قليلة ، على التقاطه السماعة ، حتى سمع صوت مدير المخابرات الأمريكى ، على الجانب الآخر ، وهو يقول :

ـ هل من أخبار جديدة ، يا نظيرى المصرى ؟

قال مدير المخابرات المصرى فى صرامة :

ـ لدينا أخبار مؤكدة ، عن هجوم عنيف ، وقع على بعض أفراد بعثتنا الدبلوماسية فى (واشنطن) ، بأسلوب يتشابه وأسلوب جهاز مخابراتكم ..

صمت الأمريكى بضع لحظات ، ثم قال فى برود :

ـ أظننا نتحدث عن فريق مخابراتكم ، الذى دخل بلادنا ، باعتباره بعثة دبلوماسية رسمية .

(*) الخط الساخن : مصطلح يطلق على هاتف من نوع خاص ، يحدث الاتصال بين طرفيه فور رفع أحدهما سماعة الهاتف من ناحيته ، دون الحاجة إلى طلب أية أرقام ، وهذا النوع من الهواتف يمكن تأمينه ، بحيث يتوقف عن العمل تمامًا ، لو جرت أية محاولة لمراقبته ، أو التنصت عليه .

لم يبال المدير بأية قواعد هذه المرة ، وهو يسأله فى صرامة :

- أين رجالنا يا رجل ؟

أطلق الأمريكى زفرة عصبية ، وهو يجيب :

- لست أدرى .

هتف مدير المخابرات فى صرامة مستنكرة :

- لست تدرى ؟ هذا قول لا يليق بمدير مخابرات .

بدا الأمريكى شديد التوتر ، وهو يقول :

- ربما يصلح هذا القول ، فى الظروف العادية ، ولكنه لا يصلح أبدًا فى ظروفنا هذه ، التى تعقدت فيها كل الأمور ، وتشابكت على نحو لم يحدث من قبل قط .. أعترف أن الهجوم على فريقكم قد تم فى عاصمتنا ، بأسلوب يشبه تمامًا أساليبنا ، التى لم نعلن عنها قط ، ولم ولن نعترف بها أبدًا ؛ لأن قانون المخابرات عندنا يمنعنا من العمل داخل البلاد ، وربما اشترك فيه بعض رجالنا أيضًا ، ولكننى أجهل كل شىء عنه ، فلم أصدر أية أوامر بشن الهجوم ، أو تصلنى أية معلومات عنه ، قبل أو بعد حدوثه .. بل وأعترف حتى إننى كنت أجهل تمامًا ؛ من الناحيتين ، الرسمية والفعلية ، وجود أى فريق لكم هنا .

قال مدير المخابرات فى صرامة :

- ربما أصدق ما قلته ، فيما عدا نقطة واحدة ، وهى أنك كنت تجهل وجود فريق من مخابراتنا فى (واشنطن) ، فلقد سألتك فى البداية عن بعثتنا الدبلوماسية ، فتحدثت أنت عن فريق مخابراتنا .

أجابه الأمريكى فى حزم :

- لأننى رجل مخابرات ، منذ أكثر من ثلاثين عامًا يا رجل وليس من العسير أن أفهم ما يعنيه الأمر .. ثم إنه لم يتم إبلاغى بذلك الهجوم رسميًا ، إلا أن بعض عملائنا رصدوا الموقف ، وأبلغونا به ، فقمنا بتحرياتنا حوله ، ومن الطبيعى أن أدرك الحقيقة ، التى لم تخبرونى بها ، بل وأن أقدر دوافعكم أيضًا ، فلو أننا فى موضعكم لقمنا بالخطوة نفسها .

سأله المدير فى اهتمام :

- المهم .. هل قادتكم تحرياتكم إلى أية معلومة جديدة ؟!

أجابه الأمريكى فى أسف :

- ليس بعد .. كل الأجهزة الأمنية هنا أنكرت أية صلة لها بالهجوم ، بل وأنكرت حتى معرفتها به ، ولقد أجرينا

اتصالاتنا بكل المطارات ، والمستشفيات ، وتحرينا حتى عن كل طائرة خاصة ، أقلعت من المطارات الرئيسية ، أو المطارات الخاصة ، أو حتى المطارات السرية ، التى نراقبها خلسة ، وراجعنا تقارير كل الطرق البرية ، والموانى البحرية ، ولم نحصل على أى شىء .

سأله المدير ، فى قلق شديد :

ـ أين ذهبوا برجالنا إذن ؟!

زفر الأمريكى ، قبل أن يقول :

ـ بل السؤال الحقيقى هو من هم ؟! من أولئك الذين شنوا ذلك الهجوم العنيف على رجالكم ؟! ولماذا شنوه بالتحديد ؟!

ولم يجب مدير المخابرات المصرى على الفور ..

فقد كان الأمريكى على حق هذه المرة ..

لا بد أن يجاب السؤالين أولاً ، لمعرفة مصير أفراد الفريق ..

من فعلها ؟!

ولماذا ؟!

* * *

« (أدهم صبرى) .. ليس فى خدمتك يا سيدتى .. »

نطق (أدهم) العبارة ، فى هدوء ساخر ، وهو يقف أمام مستشارة الأمن القومى الأمريكية ، فى زى بحارة الأسطول الأمريكى ، وحدقت هى فيه ذاهلة ، لنصف دقيقة أو يزيد ، قبل أن تهتف :

ـ أنت ؟!

أجابها بابتسامة لم ترق لها أبدًا :

ـ نعم .. هو أنا .. كان المفترض أن نلتقى فى (واشنطن)، إلا أن القدر شاء لنا أن نلتقى هنا ، فى قلب المحيط الأطلنطى .

حدقت فيه بضع لحظات أخرى ، قبل أن تقول ، فى لهجة ، بدت أقرب إلى الارتياع والذعر :

ـ ولكن المفترض أنك .. أنك .. أعنى أننى هنا من أجل .. من أجل ..

قاطعها (أدهم) فى شىء من السخرية :

ـ من أجل جثتى .. نعم .. أعلم هذا .

ثم رفع سبابته أمام وجهه ، مستطردًا فى حزم :

ـ ولكن لهذا قصة .

رددت مبهوتة :

ـ قصة ؟!

أشار بيده ، قائلاً :

ـ نعم قصة تحتاج إلى أن نتحدث وحدنا .. فى سرية تامة .

حدقت فيه مرة أخرى ، وكأنما لا تصدق حقيقة الموقف ، ثم لم تلبث أن انتفضت ، وكأنها تلقى ذهولها وانبهارها خلف ظهرها ، قائلة :

ـ فليكن .. سنذهب إلى حجرة القبطان ، و ...

قاطعها فى حزم ، وهو يلتقط ذراعها ، ويقودها إلى سطح السفينة ، قائلاً بلهجة رجل ، اعتاد أن يأمر فيطاع :

ـ كلا يا سيدتى ، ما رأيته من أجهزة ومعدات متطورة فى أسفل ، يجعلنى أرفض فكرة التحدث فى أماكن مغلقة .. إننى أفضل الحديث على سطح الناقلة ، بعيداً عن الآخرين .

تبعته كالمسحورة ، وهو يقودها فى هدوء ، إلى ركن بعيد من السطح ، بالقرب من الحاجز الخلفى للمدمرة ، وما أن استقر بهما المقام هناك ، حتى سألته فى لهجة تخلو من عصبيتها المعتادة :

ـ ماذا تعنى بما رأيته فى أسفل ؟!

تطلع إلى عينيها مباشرة ، وهو يقول فى لهجة حازمة :

ـ لقد كنت هناك يا سيدتى .

ثم مال نحوها ، مضيفاً :

ـ فى قلب المحيط .

وانتفض جسدها فى عنف ، مع ذلك الشعور العجيب ، الذى سرى فى جسدها كله ، كرياح دافئة ، انطلقت من أذنيها إلى قلبها مباشرة ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تحدق فيه ، وقلبها يخفق ..

ويخفق ..

ويخفق ..

يا إلهى ! كم يشبهه ..

كم يشبه فارسها العربى ، الذى خلب لبها فى شبابها ..

نفس القامة ..

والوسامة ..

والقوة ..

والشخصية الآسرة ..

حتى أسلوب الحديث ، الذى يجمع بين الحزم والهدوء ..

يا إلهى !

كم يشبهه ..

خفق قلبها مع تلك المشاعر الفيّاضة ، التى اجتاحت جسدها كله ، والتى بذلت جهدًا رهيبًا للسيطرة عليها ، وهى تسأله فى صوت خافت ، استنكرته أذناها تمامًا :

ـ وماذا يحدث هناك ؟!

اعتدل مجيبًا بصوته القوى :

ـ سأخبرك .

بدت كالمأخوذة ، وهى تستمع إليه ، وهو يصف لها غوّاصة الزعيمة ، بكل ما تحويه من أجهزة اتصال وسيطرة متطوّرة ، ثم وهو يشرح لها كيف فرّ منها ، وصعد إلى السطح ، بوساطة الزورق المطاطى الآلى ، قبل أن يقول :

ـ وعندما وصلت إلى السطح ، كنت أقاوم غيبوبة عنيفة ، كادت تسيطر على كيانى كله ، حتى إنهم تصوّروا أننى جثة هامدة ، ولكننى استعدت وعيى على سطح المدمرة ، ووجدت

القبطان يقف أمامى ، ويخبرنى أنهم كانوا يبحثون عنى منذ فترة ، وأنه سيبلغ (واشنطن) بخبر العثور علىّ حيًا ، إلا أننى استوقفته ، وشرحت له الموقف كله ، وما الذى رأيته فى تلك الغوّاصة هناك .. فى أعماق الأطلنطى .

بدا عليها الارتياع ، وهى تقول مستنكرة :

ـ شرحت له الموقف كله ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال فى حزم :

ـ نعم .. كان ينبغى أن أفعل .. إنه قبطان المدمرة ، ومن المحتم أن يكون أهلاً للثقة ، وخاصة بعد أن قضى ما يقرب من ساعتين كاملتين ، فى انتشال جثث ضباط وجنود ، من القوات البحرية الأمريكية ، قضوا نحبهم مع سفنهم ، بسلاح رهيب مجهول ..

لم تنبس ببنت شفة ، وكأنما يمنعها أسلوبه القوى من مجرّد المناقشة ، فتابع هو :

ـ من حسن الحظ أنه كان رجلاً وطنيًا صادقًا ، ويمتلك عقلاً واعيًا متفهمًا ؛ استوعب بسرعة فكرة مراقبة الاتصالات ، واتفق معى على أن يبلغكم بالعثور على جثتى فحسب ، حتى نوحى لتلك الغامضة فى الأعماق ، أننى قد لقيت مصرعى ، فلا تحاول مهاجمة المدمرة لاستعادتى .

قالت مبهورة :

ـ فقط ؟! هل أعلنت مصرعك ، لتمنعها من استعادتك فحسب ؟!

قال فى سرعة :

ـ بل وحتى يمكننى مباغتتها أيضًا .

ردّدت حائرة :

ـ مباغتتها ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول فى عزم :

ـ نعم .. فمن المستحيل أن أسمح لها بمواصلة خطتها الجنونية ، وسعيها المريض للسيطرة على العالم .

وعاد يميل نحوها ، مضيفًا بكل الحزم والعزم :

ـ لقد قررت أن أعود إليها هناك .. فى الأعماق .

مرة أخرى انتفض جسدها ، مع أنفاسها الحارة ، ولهجته القوية ، وحدّقت مبهورة مأخوذة فى ملامحه ، وفى عينيه الصارمتين الآمرتين العميقتين ، مردّدة فى خفوت :

ـ الأعماق ؟!

ثم هزّت رأسها فى قوة ، لتنتزع نفسها من حالة الانبهار ، التى سيطرت عليها ، ولكنها بذلت جهدًا حقيقيًا ، لتستعيد شيئًا من صرامتها أمامه ، وهى تقول فى توتر :

ـ ولكن كيف ؟! كيف يمكنك الوصول إلى غوّاصة كهذه ، تعجز كل وسائلنا عن رصدها ، فى أعماق الأطلنطى .

ابتسم وهو يشير إلى رأسه ، قائلاً :

ـ لقد أرهقنى التفكير طويلاً فى هذا الأمر فى الواقع ، حتى علمت أنكم تطلبون جثتى فى إلحاح .. عندئذ فقط أدركت أن هذا مطلبها هى ، وليس مطلبكم ، أو حتى مطلب قيادتى فى (القاهرة) ، فما كنتم ستتحدثون بهذه العصبية المتعجلة ، إلا فى حالتها وحدها ، فهى مصرٌ حتمًا على التأكد من مصرعى ، ووسيلتها الوحيدة فى هذا ، هى أن تستعيد جثتى المزعومة .

سألته بقلب مرتجف :

ـ وماذا تنوى أن تفعل ؟!

هزّ كتفيه ، قائلاً فى لا مبالاة :

ـ سأمنحها ما تصبو إليه .

وابتسم فى سخرية ، مضيفًا :

ـ جثتى .

لم تستوعب تماماً ما ينوى فعله ، إلا أنها وجدت نفسها تغمغم ، دون أن تدرى :

ـ يا للأسف !

ارتفع حاجباه فى دهشة لقولها ، فانتبهت هى إلى ما نطقته ، وارتبكت وهى تقول فى عصبية :

ـ إنك تعرِّض نفسك لخطر داهم .

هزَّ كتفيه مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ من يدرى ؟! ربما تحمل لها عودتى ذلك الخطر الداهم .

حاولت أن تقول شيئاً ..

أى شىء ..

ولكن لسانها انعقد فى حلقها ، فلم تستطع التفوّه بحرف واحد ، فى حين أدار (أدهم) عينيه فيما حوله ، وقال :

ـ ولكنك لم تحضرى شخصياً ، فى ناقلة بترول ضخمة كهذه ، للحصول على جثتى فحسب .

واتجهت عيناه إليها فى حزم ، وهو يضيف :

ـ إنك تحملين لها شيئاً آخر .. شىء ضخم للغاية ..

أليس كذلك ؟!

ازدردت لعابها فى صعوبة ، وهى تقول :

ـ ليس هذا من شأنك .

خُيِّل إليها أن عينيه تقتحمان عينيها ، إلى كيانها كله ، وهو يواصل ، متجاهلاً تعليقها تماماً :

ـ دعنى أستنتج هذا .. إنه ذهب (فورت نوكس) ، الذى أعلنتم أن إرهابيين مزعومين قد استولوا عليه .. أليس كذلك ؟! .

اتسعت عيناها فى ارتياع ، وهمت بقول شىء ما ، و ..

ولكن فجأة ، دوى الانفجار ..

انفجار هائل رهيب ، أطاح بالمدمرة (أيزنهاور) ، وسحقها سحقاً ، بكل ما عليها ومن عليها ، فى لحظة واحدة ..

وبدا من الواضح أن ناقلة البترول هى الهدف التالى ، لمدفع الليزر الفضائى الرهيب ، بكل ما عليها ..

ومن عليها ..

بلا استثناء .

* * *

٨ـ الشيطانة ..

زفر الرئيس الأمريكى ، فى عصبية شديدة ، وهو يستقر على ذلك المقعد الوثير ، خلف مكتبه الضخم ، فى البيت الأبيض ، ولوّح بيده ، قائلاً :

ـ إنها أسخف جلسة (كونجرس) واجهتها ، فى حياتى كلها .. النواب كادوا يفتكون بى ، من فرط ثورتهم لما حدث فى (فورت نوكس) .

قال وزير الدفاع ، وهو يلقى جسده المكدود ، على أقرب مقعد إليه :

ـ لو أننى فى مكانهم ، لما فعلت أقل من هذا .. الاقتصاد الأمريكى لم يعد يحتمل خسارة رهيبة كهذه .

غمغم الرئيس بنفس العصبية :

ـ أعلم هذا .

ثم لوّح بيده ، قائلاً فى حدة :

ـ ولكن لجنة التحقيق التى أقرّوها اليوم ، كفيلة بتدمير مستقبلنا كله ، بل وإيداعنا السجن مدى الحياة أيضًا ، لو كشفت تورُّطنا فى الأمر .

هزّ الوزير رأسه ، وكأنما يحاول طرح الأمر كله عن أعصابه ، وهو يقول فى توتر :

ـ مثل هذه اللجان تستغرق دهرًا ، قبل التوصّل إلى الحقيقة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ وخاصة لو حرصنا على هذا .

انعقد حاجبا الرئيس ، وهو يرمقه بنظرة قاسية ، قائلاً :

ـ هل تجد فى نفسك الرغبة فى المزاح ، فى ظروف كهذه ؟!

انتفض الوزير على مقعده ، وهو يقول :

ـ المزاح ! إننى جاد تمامًا يا سيادة الرئيس .. إننا نتحكّم فى كل شىء فى (أمريكا) ، فى الوقت الحالى ، وبعد تلك القوانين الاستثنائية ، التى أقرّها (الكونجرس) بنفسه ، والتى تمنحنا حق مراقبة كل المواطنين بلا استثناء ، وبلا إذن مسبق أيضًا ، واعتقال كل المشتبه فيهم ، دون إبداء الأسباب ، ثم إن لدينا الآن جهاز الأمن الداخلى ، الذى يمتلك صلاحيات واسعة لا حدود لها .

تراجع الرئيس فى مقعده ، وهو يسأله فى عصبية :

ـ وبم يمكن أن يفيدنا كل هذا ؟!

أشار الوزير بيديه ، قائلاً :

ـ يمكننا اعتقال من نشاء ، ووضع العراقيل فى كل خطوة من خطوات التحقيق ، ودس أدلة وهمية .. أو حتى تصفية من نخشى أمرهم ، لو اقتضى الأمر .

انعقد حاجبا الرئيس فى شدة ، وهو يقول :

ـ هذا سيجعلنا أقرب إلى التنظيمات الإجرامية ، منا إلى إدارة أمريكية محترمة .

مطَّ الوزير شفتيه ، وهو يقول :

ـ هذا لن يختلف كثيراً عما فعلناه ، عندما أدرنا حرب (العراق) ، أو حتى عندما انتصرنا على (أفغانستان) .

ازداد انعقاد حاجبى الرئيس ، وهو يقول :

ـ ما كان ينبغى أن تذكرنى بهذا .

سأله الوزير فى عصبية :

ـ وهل نسيته ؟!

أشاح الرئيس بوجهه ، قائلاً :

ـ إننى أحاول على الأقل .

لم يكد يتم عبارته ، حتى ارتفع رنين الهاتف المحمول للوزير ، فالتقطه بحركة سريعة ، قائلاً :

ـ من المتحدث ؟!

بدا عليه الانتباه والاهتمام الشديدين ، وهو يستمع إلى محدثه ، حتى إنه هبَّ من مقعده ، وراح يتحرك فى المكان بعصبية جعلت الرئيس الأمريكى يلتفت إليه ، ويسأله فى توتر :

ـ ماذا هناك ؟!

أشار إليه الوزير أن يصمت ، وهو يواصل الاستماع إلى محدثه للحظة أخرى ، قبل أن يقول فى حزم متوتر :

ـ فليكن .. واصل الاحتفاظ بهم ، حتى أخبرك ما الذى عليك أن تفعله بشأنهم .

أنهى المحادثة ، والتفت إلى الرئيس ، الذى سأله ، مكرراً بتوتر أكثر :

ـ ماذا هناك ؟!

التقط الوزير نفساً عميقاً ، للسيطرة على أعصابه ، قبل أن يقول فى توتر شديد :

- المصريون أرسلوا فريقاً من مخابراتهم ، لمتابعة الموقف هنا ، دون أن يخبرونا بهذا .. فريق يضم أربعة ، من أقرب المقربين إلى رجلهم (أدهم صبرى) .

اعتدل الرئيس على مقعده ، وهو يقول فى اهتمام :

- ربما أرسلوهم للبحث عن (أدهم) ، أو لاستعادة جثته ، التى يطلبونها فى إلحاح .

انعقد حاجبا الوزير ، وهو يقول :

- من المستحيل أن نمنحهم جثته .

تنهّد الرئيس فى عصبية ، وقال :

- هذا أمر طبيعى ؛ فتلك الزعيمة الغامضة أيضاً تصر على الحصول عليها .

ازداد انعقاد حاجبى الوزير ، وهو يقول :

- هى أيضاً لن يمكنها الحصول عليها .

ارتفع حاجبا الرئيس ، مع اتساع عينيه فى دهشة ، فتابع الوزير ، فى مزيج من الصرامة والتوتر :

- لأن (أدهم صبرى) ما زال على قيد الحياة .

انتفض جسد الرئيس فى عنف ، وهو يهتف :

- ما زال على قيد الحياة ؟! ولكن كيف ؟! لقد أبلغونا بالعثور على جثته .

هزّ الوزير رأسه ، قائلاً :

- هذا أمر يطول شرحه يا سيادة الرئيس ، ولكن يكفى أن تعلم أن أحد ضباط المدمرة (أيزنهاور) قد أبلغنا بوجود (أدهم صبرى) على قيد الحياة ، على متن المدمّرة ، و ...

صمت لحظة ، تضاعفت خلالها عصبيته ، قبل أن يقول :

- وكان من الضرورى أن ألجأ إلى إجراء احتياطى .

قال الرئيس فى دهشة :

- احتياطى ؟! لضمان استمرار رجل المخابرات المصرى ، فى العمل لحسابنا حتى النهاية .

تطلّع إليه الرئيس فى دهشة ، وكأنما يعجز عن فهمه ، ثم لم يلبث أن ضم شفتيه ، وهو يسأله فى صرامة ، امتزجت بعصبيته وتوتره :

- وما الإجراء الاحتياطى الذى اتخذته ؟!

صمت الوزير لحظة أخرى ، قبل أن يقول فى حزم :

- لقد ألقيت القبض عليهم ... على ذلك الفريق المصرى .

قال الرئيس في عصبية مستنكرة :

ـ ألقيت القبض عليهم ؟ بعد كل ما فعله المصريون من أجلنا ؟!

لوّح الوزير بيده في حدة ، وهو يقول :

ـ المصريون فعلوا ما فعلوه ، من أجل أنفسهم ، وليس من أجلنا .. إنهم يعلمون أن سقوطنا سيعني عهدًا إرهابيًا أكثر بشاعة ، على يد تلك الغامضة .. إنهم ..

قاطعه الرئيس بإشارة صارمة من يده ، وهو يقول في حدة :

ـ فليكن .

ثم حاول عبثًا أن يسيطر على أعصابه ، وهو يستطرد :

ـ المهم .. ما الذي فعلته بفريق المخابرات المصري .

شد الوزير قامته ، وقال :

ـ لقد أرسلتهم إلى مكان ، لن يمكنهم الفرار منه أبدًا .

وقسا صوته في شدة ، وهو يضيف :

ـ إلى (جوانتانامو)(*) ..

واتسعت عينا الرئيس الأمريكي لحظة ، قبل أن ينعقد حاجباه بشدة ..

بمنتهى الشدة ..

* * *

انتفض جسد مستشارة الأمن القومي الأمريكية ، في ارتياع عنيف ، عند مرأى المدمرة (أيزنهاور) تسحق أمام عينيها ، وقفزت تتعلق بعنق (أدهم) في رعب هائل ، وهي تصرخ :

ـ رباه ! نحن الهدف التالي .. نحن الهدف التالي .

(*) جوانتانامو باي : قاعدة البحرية الأمريكية ، في جنوب (كوبا) ، استأجرتها (أمريكا) عام ١٩٠٣ م ، بعقد وقعه الجانبان ، وتجدد التوقيع عليه عام ١٩٣٤ م ، حاول الرئيس الكوبي (فيدل كاسترو) استعادة (جوانتانامو) ، ولكن الرئيس الأمريكي (جون كيندي) أرسل القوات البحرية لحمايتها ، ومنذ ذلك الحين ، توقف الرئيس الكوبي عن صرف شيكات إيجار القاعدة ، واعتبر التواجد الأمريكي فيها غير شرعي ، وبعد حرب (أفغانستان) ، أنشأ الأمريكيون سجنًا ومعتقلاً رهيبًا في (جوانتانامو) ، يحتفظون فيه بعدد غير معلن من الأسرى والمعتقلين ، دون تحديد أسمائهم وهوياتهم ، ويعاملونهم فيه معاملة شديدة القسوة ، تتعارض مع كل الاتفاقيات الدولية ، وقواعد حقوق الإنسان .

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وهو يقول :

ـ مستحيل ! إنها لن تجازف بخسارة كل هذا الذهب .

صرخت مستشارة الأمن القومى :

ـ تلك الحقيرة قادرة على فعل أى شىء .. أى شىء .

مع آخر حروف صرختها ، ارتج جسد ناقلة البترول الضخمة فى عنف شديد ، لاختل معه توازن الجميع على سطحها ، فصرخت المستشارة مرة أخرى ، ولكن (أدهم) أزاحها عن عنقه ، وهو يقول فى حزم :

ـ يمكنها أن تحاول على الأقل .

قالها ، واندفع نحو قمرة القبطان ، الذى بدا شديد التوتر ، وهتف به :

ـ أين تضعون الشحنة ؟!

صاح القبطان :

ـ لا يمكننى أن أخبرك .. إنها مسألة تتعلق بالأمن القومى .

هتف (أدهم) :

ـ أمن قومى ؟! فليكن يا رجل .. ليس لديكم سوى مكان واحد ، لوضع شحنة كهذه .

قالها ، واندفع نحو الكوة الكبيرة ، التى تقود إلى خزانات البترول الهائلة فى قاع الناقلة ، ووثب عبرها فى رشاقة ، وهو يغمغم :

ـ لماذا تعبثين بقاع الناقلة يا زعيمة الحمقى ؟! أراهن أنك ستحصلين على شحنة الذهب ، بأسلوب جديد ومبتكر للغاية .

كانت الناقلة قد عادت تستقر على سطح المحيط ، وهو يواصل الهبوط إلى الخزانات الضخمة ، متابعًا :

ـ دعينى أفكِّر جيدًا .. إن نقل شحنة كهذه إلى غواصتك ، يحتاج إلى جهد هائل ، ووقت طويل للغاية ، وليس من صالحك تحديد موقعك لفترة كهذه .. لديك إذن وسيلة أكثر سرعة ، و ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، عندما وصل إلى القاع ، الذى يضم خزانات البترول الهائلة الخالية ، التى لم تعد تحوى سوى صندوقين معدنيين هائلى الحجم ، يحويان ذهب (فورت نوكس) ..

وحول الصندوقين ، كان هناك جيش صغير ، من رجال الزعيمة ، مع فريق من الرجال ، الذين يرتدون ثيابًا لامعة ، مقاومة للنيران ، ودرجات الحرارة العالية ..

وكانت هناك أنابيب من الألياف الزجاجية القوية ، تمتد عبر فتحة كبيرة في القاع تم فتحها بوساطة قاطع ليزري قوي وسريع ..

فتحة تتصل مباشرة بغوّاصة الزعيمة ، حتى لا تتدفق مياه المحيط إلى حيث الشحنة .

وكان هناك بعض الرجال ، الذين يرتدون الثياب المقاومة للنيران يستخدمون القاطع الليزري نفسه ، لصنع عدد من الفجوات ، في قاع الصندوقين المعدنيين الهائلين ..

واستوعب عقل (أدهم) الصورة كلها ، في ثانية واحدة ..

بل واستوعب أيضًا ما يفعله جيش المقاتلين والفنيين ، الذي انتقل حتمًا ، من الغوّاصة إلى قاع الناقلة ، عبر تلك الفتحة نفسها ..

لقد كان على حق ..

إنهم لن ينقلوا الشحنة ، من الناقلة إلى الغوّاصة ، بأي وسيلة تقليدية مألوفة .

بل بوسيلة مبتكرة وجديدة تمامًا ..

سيستخدمون القاطع الليزري ، بما يولّده من حرارة هائلة ؛

لإذابة شحنة الذهب ، داخل الصندوقين المعدنيين الهائلين ، ودفع الذهب السائل ، عبر أنابيب الألياف الزجاجية القوية(*) ، إلى مكان تم تخصيصه مسبقًا ، في قلب الغوّاصة ، حيث يُعاد تجميده ، واستخدامه ..

أسلوب عبقري ..

وشيطاني ..

كصاحبته ..

كل هذا استوعبه عقل (أدهم) ، في ثانية واحدة ..

وقبل حتى أن تبدأ الثانية التالية ، صرخ أحد رجال جيش الزعيمة :

ـ هجوم ..

وفي لحظة واحدة ، ارتفعت فوهات المدافع الآلية كلها نحو (أدهم) ..

وانهالت الرصاصات كالمطر ..

(*) الألياف الزجاجية يمكنها احتمال درجات حرارة مرتفعة للغاية ، لذا تصنع منها أدوات الطهي الشفافة غالية الثمن ، والتي يمكن وضعها في الأفران ، دون أن تصاب بأي أذى .

لم يكن جسده قد شفى بعد من إصاباته السابقة ، داخل غواصة الزعيمة ، وعلى الرغم من هذا فقد وثب من مكانه أعلى الخزانات ، متفادياً عشرات الرصاصات ، ليهبط فوق أحد الصندوقين الهائلين مباشرة ..

ومن موقعه هذا ، كان من العسير عليهم إصابته برصاصاتهم ، لذا فقد صاح بهم قائدهم الجديد فى صرامة آمرة :

ـ اصعدوا إليه .. لاتسمحوا لأى مخلوق بإفساد المهمة ثم التفت إلى طاقم الفنيين ، فى ثيابهم اللامعة ، المقاومة للنيران ، وأضاف فى شراسة ، أهلته لمنصبه الجديد :

ـ لا تتوقفوا .. واصلوا عملكم .. الزعيمة قالت إن كل دقيقة لها ثمنها .

واصل الفنيون عملهم فى توتر ، فى نفس الوقت الذى راح المسلحون يتسلقون فيه الصناديق المعدنية الهائلة ، من كل جوانبها ، للانقضاض على (أدهم) ..

وفى تلك اللحظة فقط ، انتبه (أدهم) إلى حقيقة رهيبة ..

إنه لا يحمل سلاحاً ..

أى سلاح ..

وعدد الرجال ، الذين يتسلقون الصندوقين لمهاجمته على سطحهما ، يكاد يقارب الخمسين ..

خمسون رجلاً مسلحاً ، فى مواجهته وحده ..

ووفقاً لأية حسابات منطقية ، وحتى مع خبرته ومهاراته ، قد يتمكن من تجاوز عشرين مقاتلاً منهم ..

ولكن الآخرين سيمطرونه برصاصاتهم حتماً ..

ودون أن تكون هناك فرصة واحدة لعدم إصابة الهدف .

أى هدف ..

وبسرعة مذهلة ، انطلق عقله يعمل ..

ويعمل ..

ويعمل ..

ثم فجأة ، قفزت إلى ذهنه صورة واحدة كبيرة ..

صورة تلك الفتحة ، فى أرضية الخزانات ، والتى تربط الناقلة بغواصة الزعيمة مباشرة ..

وفى نفس اللحظة ، التى برز فيها أول رجال الزعيمة ، عند قمة الصندوق المعدنى الهائل ، الذى يقف عليه ، كان (أدهم) قد أقر خطة مجنونة ..

ووضعها موضع التنفيذ ..

وبحركة رشيقة إلى حد مذهل ، وعلى الرغم من إصابته السابقة ، التى تلوثت ضماداتها بالدم ، اندفع نحو الرجل ، ووثب منقضاً عليه كالفهد ، ليسقط كلاهما من أعلى الصندوق ..

وبدلاً من السقوط أرضاً ، دار جسد (أدهم) مع الرجل المسلّح ، دورة مذهلة للغاية ، ثم هبطا معاً ، عبر تلك الفتحة فى القاع ..

واختفيا عن الأنظار تماماً ، والرجل يطلق صرخة قوية ، غابت داخل الغوّاصة ، حتى تلاشت تماماً ..

ووثب المقاتلون من الصندوقين المعدنيين الهائلين ، واندفعوا نحو الفتحة ، ولكن قائدهم صرخ بهم فى صرامة :

ـ توقّفوا ..

تسمّر الجميع فى أماكنهم ، فالتفت هو إلى الفنيين ، وسألهم بشراسته الوحشية :

ـ هل يمكنكم الضخ الآن ؟!

أومأ أحدهم برأسه ، فقال القائد فى شراسة :

ـ ابدأ الضخ إذن .

وضغط أحد الرجال زر القاطع الليزرى ، وهو يدفعه داخل فتحة صغيرة فى الصندوق ..

ولم تمض لحظات ، حتى بدأ الذهب المصهور يتدفق عبر أنابيب الألياف الزجاجية ، إلى تلك الفتحة ، التى تربط الناقلة بالغوّاصة ..

وبرقت عينا القائد الشرس ، وهو يقول :

ـ مصير لم يحلم به ذلك المصرى أبداً .. سينتهى أمره داخل قالب من الذهب الخالص ..

قالها ، وأخذ يضحك فى نحو هستيرى ، وأبخرة الذهب المصهور تتصاعد من الفتحة فى كثافة ..

الفتحة التى تحوّل جانبها السفلى داخل غوّاصة الزعيمة إلى جحيم ..

جحيم حقيقى ..

من الذهب الخالص .

* * *

انتهى الجزء الرابع بحمد الله

ويليه الجزء الخامس والأخير

(النهاية)



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل
سلسلة روايات بولية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

149



المصيدة

- ما سر تلك الزعيمة الغامضة، التي أصبحت بالفعل على شفا السيطرة الكاملة على العالم ؟!
- كيف منح الأمريكيون (أدهم صبرى) صلاحيات أمنية هائلة، فى أقوى أجهزتهم ؟!
- ترى من ينتصر فى هذه الجولة العنيفة من الصراع، وعلى من تنطبق (المصيدة) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة، وقاتل بعقلك وكيانك مع الرجل .. (رجل المستحيل).



العدد القادم (النهاية)